المساخيط

daralmoltaqa@gmail.com

حقوق الطبع محفوظة لدار ملتقى المعرفة للنشر والتوزيع

ردمك: 978-977-85411-1-3
رقم الإيداع القانوني: 2018/16102

ملتقى المعرفة

حقوق الطبع محفوظة لدار ملتقى المعرفة للنشر والتوزيع وأي اقتباس أو إعادةطبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو إلكترونية أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

المراجعة اللغوية والإخراج الفني: فريق العمل بدار ملتقى المعرفة للنشر والتوزيع

تصميم الغلاف: شركة أرابيسك (الحلول المتكاملة للتقنية والتصميم) arabisq1@gmail.com

القاهرة / مصر

جوال: 00201278821670
00201003528058

daralmoltaqa@gmail.com

بسام الدويك

الكاتب الذى حصل على جائزة
الإبداع الأدبى للكتاب الأول 2018
عن روايته "عائشة قنديشة"

المساخيط

حيث النساء خلقن من صخر

ملتقى المعرفة

daralmoltaqa@gmail.com

"قبل أن تولد الفيزياء والبسيكولوجيا بكثير، كان الألم
يفتت المادة وكان الحزن يفتت الروح"

إميل سيوران

إهداء

إليها..

أحيانًا تعجز الكلمات عن التعبير عن مكنون قلوبنا، لذا فأنا أعلن أمامكم عجز كلماتي عن الوفاء بقدرها، وأن تصف لكم محبتي وعشقي وامتناني لوجودها في حياتي..

إليكِ.. يا عبير الروح.. أهدي هذه الرواية، لعلّي أمنحك قدرًا ضيئلًا من حقك عليّ..

إليهم..

– كنت قد أهديت روايتي الأولى لأبناء جيلي التعس، وبما أننا رغم شبابناقد ضاع الأمل منا في الأخذ بزمام حياتنا، فربما نجد العزاء في جيلٍ جديدٍ، يتقن من سبل التقنية ما يفوقنا، وتفتّحت عيونهم على الأمل وعلى انكسار التابووهات، وحصلوا على مساحة أوسع من الحرية.. أزعم أنه لم يحصل عليها جيل من قبل.. إلى مواليد الألفية الجديدة..

بسام الدويك

الفصل الأول

الحاج إبراهيم الماوردي

تلألأت حبّات الرمال الصفراء تحت أشعة شمس الصباح، في تلك الواحة المنسية علي أطراف الحدود الغربية من مصر والتي لا يزيد عدد سكانها عن بضعة آلاف نسمة، وقد بدا أنهم لا يعيشون مثلنا في القرن الحادي والعشرين، بل ما زالوا يعيشون حياة بدائية على رعي الأغنام و بيع التمور وزيت الزيتون، بدأت الحركة تدب مع بزوغ الشمس، فخرج الفلاحين من بيوتهم باتجاه أراضيهم المحدودة الخصوبة، بينما يتعالى صوت غثاء الغنم من أرجاء الواحة، على أنه لا يمر أحد بذلك البيت الكبير الذي تم بناءه في منتصف الواحة، وقد التحقت به غرفة مربعة واسعة تعلوها قبة خضراء زاهية إلا ووقف قليلًا بجوار الغرفة يردد بعض الكلمات الهامسة، ربما كان يقرأ الفاتحة لساكن الضريح أو يدعو له بعض الدعوات.

أما في داخل البيت فكانت الحركة أكثر نشاطًا وبدا أنها قد بدأت مع أذان الفجر حين اسيقظ الحاج إبراهيم الماوردي بقامته المديدة وبنيانه المتين، وقد وخط الشيب رأسه بعد أن تجاوز الخمسين بسنتين، في حين هرعت زوجته الحاجة هند تجهّز له ماء وضوءه ليصلي الفجر في المسجد القريب من البيت، وبعدها يجلس

حتى شروق الشمس بداخل الضريح، وما أن تشرق الشمس حتى يخرج ليتمشّى بين الناس.

– صباح الخير يا سيدي إبراهيم.

قالها أحد الفلاحين وهو يهرع لتقبيل يد الحاج إبراهيم الذي سحب يده بسرعة وربّت على كتفه قائلًا بلهجته البدوية التي تميز ساكني الواحات:

– أهلا يا ولدي.

فعاد الفلاح الشاب إلى بهيمته يمسك بعِقالها وهو يقول:

– لا تنساني من صالح دعائك يا سيدنا.

أكمل المسير في ربوع الواحة تسبقه عصاه التي ورثها عن أجداده، يتلقى التحيات و يدعو لهذا و يطيّب خاطر تلك بعد شكواها من زوجها، ثم يرسل لزوجها فيعاتبه ويعنّفه إذا لزم الأمر، فلا يملك الزوج سوى الخضوع لكلمات سيدنا ويتوجه لإرضاء الزوجة، ثم يتوجّه نحو الحقول، فيشرف على توزيع مياه الري بين الفلاحين بالتساوي، وطبقًا لجدول زمني حدده مسبقًا فلا يجرؤ أحد على تجاوزه وإلا تعرّض لما لا يحمد عقباه، فما زالت ذاكرتهم تحتفظ بذكرى ذلك اليوم الذي عصى فيه ذلك البائس منصور تعليمات الحاج إبراهيم، فلم تقرب المياه حقله حتى كادت تبور، لولا أن توسّط له أهل الواحة واسترضى منصور سيدنا حتى رضي عنه وأعاد المياه إلى أرضه، ومن يومها والكل يعلم عاقبة عصيان الحاج.

اتخذ الحاج إبراهيم طريق العودة إلى البيت بعد أن أوشك وقت الظهور على الدخول وارتفعت الشمس في كبد السماء، والتهب الرمل

أسفل حذاءه الجلدي، وقد بدا أن كل المخلوقات تؤوي إلى مساكنها الآن لحين الغروب الشمس فتعاود السعي على أرزاقها، أما الحاج فهو يمشي بتؤودة وكأنه لا يشعر بحرارة الشمس حتى وصل إلى البيت فنادى بصوته القوي وقال:

– يا هند.. هند.

هرعت إليه زوجته التي يفصلها عنه ما يزيد عن العشر سنوات قليلًا وهي تنزع عنه عباءته وتتناول عصاه لتعيدهما إلى مكانهما وتقول:

– أهلا أهلا يا حاج.. هل أعد لك الطعام؟

– لا يا حاجة.. فقط أعدّي بعض الشاي وأحضريه لي في غرفة الخلوة.

– حاضر يا حاج.

همّت أن تذهب لإعداد الشاي لزوجها إلا أنه استوقفها قائلًا:

– بالمناسبة.. أين صالح؟

ارتعدت فرائصها وهبط قلبها بين قدميها وهي تجيبه بصوت متردد:

– الحقيقة.. أنه.. أنه...

– أنه ماذا؟

– ما زال نائمًا يا حاج.

قالتها كأنما تلقي عن قلبها حملًا ثقيلًا، بينما ارتسمت علامات الغضب على وجه الحاج الذي قال هادرًا:

– ما زال نائمًا حتى الآن؟.. إلى متى سيظل حال هذا الولد خائبًا؟

– ما زال صغيرًا يا حاج، وعندما يكبر سيتعلم.

نظر لها الحاج باستهجان وهو يقول مستنكرًا:

– صغير؟.. ولدك تجاوز الثمانية عشر عامًا، أي أنه صار رجلًا.. وأمثاله من شباب الواحة يتجهّزون للزواج.. هيا اذهبي لإيقاظه ليوافيني في الخلوة.

ارتجفت هند فهي رغم طول العشرة مع الحاج، ورغم حنانه وطيبته إلا أنها ما زالت تخشى غضبه إلى اليوم، ولم تجد بدًا من التوجه لغرفة صالح وهو تردد قائلة:

– كما ترى يا حاج.. كما ترى.

توجّه الحاج ناحية ممر قصير في الجانب الأيمن من صحن الدار يقود إلى غرفة خالية مربعة الشكل يكسوها طلاء أخضر زيتوني وقد زينت بشريط من الكتابات المزخرفة تحتوي على الآية الكريمة ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾، بينما في الجدار المقابل يوجد باب يقود إلى غرفة الضريح وقد أغلقت بقفل كبير، في حين فرشت الأرض بسجادة خضراء داكنة، وفي ركن الغرفة ثمّة وسادة قطنية جلس عليها الحاج إبراهيم وقرّب إليه مصحفه وأخذ يقرأ ورده اليومي من القرآن والأذكار والأوراد، ولم تكد تمض عشر دقائق حتى سمع صوت طرقات وجلة على الباب، فقال بصوت محايد:

– ادخل يا صالح.

دخل الشاب ذو الثمانية عشر ربيعًا وقد اخضرّت لحيته بالكاد، مرتديًا جلبابًا أبيض اللون، بينما يحاول إخفاء خاتمه الفضي المنقوش على شكل جمجمة آدمية بعد أن نسي خلعه قبل المجيء إلى أبيه، أدرك

الحاج محاولات ابنه لإخفاء الخاتم ولكنه غضّ الطرف عنها مؤقتًا وهو يقول:

– اجلس يا صالح.

جلس صالح متربعًا أمام أبيه بأدب ممزوج بالخوف والتقط يد أبيه يقبّلها ويقول:

– نعم يا أبي.. أخبرتني أمي أنك طلبتني.

– نعم.. هل يعجبك هذا الحال الذي أنت فيه؟

بدت علامات السأم والتململ على وجه صالح وهو يحاول جاهدًا أن يخفيها عن أبيه وهو يجيب قائلًا:

– أي حال يا أبي؟

أجابه الحاج إبرهيم بصرامة قائلًا:

– لا تراوغ يا ولد، وتجيب سؤالي بسؤال.. أنت تعلم ما أقصده جيدًا.. سهرك كل ليلة، وسفرك المتكرر من حين لآخر للعاصمة، ونومك حتى الظهيرة، ورفضك للزواج رغم ما عرضته عليك أمك من بنات أكبر عائلات الواحة والتي يتمنون مصاهرتنا..هل كل هذا عادي بالنسبة لك؟

حاول صالح الاحتجاج فقال:

– ولكن يا أبي..

لم يسمح له الحاج بإتمام جملته فقاطعه وهو بقول بحزم:

– لا يوجد لكن.. فستختار في أقرب فرصة وقبل نهاية الشهر عروسك التي تعجبك من بنات الواحة، وتهيئ نفسك لتحمل معي مسؤليات الواحة والإشراف على احتياجاتها.

- يا أبي حاول أن تفهمني أرجوك.

أشاح الحاج إبراهيم بوجهه، وشرع يقرأ في مصحفه، ففهم صالح أن المقابلة قد انتهت وأن عليه المغادرة، فغادر الحجرة، و الحنق يملؤه حتى أنه لم يجب سؤال أمه حين سألته قائلة:

- فيم كان يريدك أبوك؟

فأشاح بيده بغضب، وخرج من الدار موليًا شطر أطراف حيث أطلال وبقايا المباني التي شيّدها «المساخيط» يومًا، ورغم أنه لا يفهم شيئًا من هذه الرسوم والطلاسم إلا أنه كان يشعر في قرارة نفسه أن لها شأنًا عظيمًا، فهي تذكره بنفسه، حيث يرى ذاته طلسمًا يعجز أبوه عن فهمه وإدراك طموحه بالسفر إلى العاصمة حيث يدرس ويعمل وينجح، لا أن يُدفن هنا وسط هؤلاء الرعاع الجهّال، والذين يعتمدون على خرافات أن جدّه الأكبر الماوردي هو الذي يسوق لهم الماء من البئر الواقع في ضريحه، وأن أباه الحاج إبراهيم قد ورث السر عن جده وهكذا، والمفترض أن يرث هو الآخر هذا السر لأنه سليل الماوردي.. أي خرافة.. وأي جهل.. وأي عبث هذا، لابد له أن يرحل عن أرض الخرافة تلك، ولكن كيف؟.. فأبوه لن يسمح له بالمغادرة والارتحال نهائيًا إلى العاصمة.. شعر بروحه تختنق في هذا المكان وكأنه يصعّد في السماء فيضيق صدرهولا يستطيع التنفس، خاصة وأن الشمس توشك على المغيب وسيحل الظلام قريبًا، فقرر العودة إلى البيت وليفكر هناك ماذا يمكن أن يفعل للخلاص من هذه المصيدة اللعينة.

* * *

الفصل الثاني

عاصم الماوردي

انهمك عاصم في متابعة العمل في أراضي العائلة التي تعتبر أخصب أراضي الواحة على الإطلاق، حتى بدت أشبه بجنة أرضية بكل ما تحتويه من أشجار الفاكهة خاصة الموالح والزيتون، فكل يوم يخرج مع أخيه مع شروق الشمس ويتوجه إلى أراضي العائلة فيشرف على العمال حتى الظهيرة وبعدها يأخذ قيلولته في الاستراحة الصغيرة التي بناها بالقرب من الحقول ويتناول لقيمات يقمن أوده، ثم يعاود العمل من بعد العصر وحتى الغروب، بعدها يتوجه إلى الدار فيجلس إلى أخيه يتحدثان في أمور الدنيا فرغم الخمسة عشر سنة التي تفصل بينهما إلا أنها ما كانا يشعران بمثل هذه الفجوة العمرية بينهما، وقد استند كل منهما على الآخر فيما يتقن، فعاصم يجيد أمور الزراعة ومراعاة شئون الدنيا إما الحاج إبراهيم فقد اكتفى بإرث جدهما الماوردي الكبير وقضاء أغلب وقته في الخلوة، ثم يصليان العشاء معًا في المسجد الواحة وبعدها يتوجه كل واحد إلى غرفته، إلا أنه اليوم حين عاد إلى الدار، وجد أخيه يجلس مهمومًا وقد شرد عقله بعيدًا فجلس إلى جواره وهو يربت ركبته ويقول:

– ماذا بك يا أخي؟.. تبدو مهمومًا.

نظر إليه الحاج بتثاقل وهو يقول:

– الولد يا عاصم.. صالح سيهدم ما بناه جدك وحافظنا عليه طوال هذه العقود.

أجابه عاصم ليخفف عنه وقال:

– هوّن عليك يا أخي.. فصالح ما زال صغيرًا وأنت تعرف هذه السن.

– كلنا مررنا بهذه السن يا عاصم، ولكن أحدًا منا لم يكن متهاونًا بهذه الصورة المخزية.

– لا عليك يا حاج.. البذرة الطيبة لا تفسد أبدًا، قد تتأخر في النمو قليلًا أو تعوّج، ولكن في النهاية تعود إلى الطريق القويم.

– هل تظن ذلك حقًا؟

– إن شاء الله خيرًا.. كل شئ من عنده خير، أنت فقط لا تحرم صالح من صالح دعائك، وسيكون أفضل مما تحب بإذن الله.

قال الحاج وكأنه يسلّم أمره لله:

– يا رب يا أخي.. يا رب.

ثم أردف قائلًا والتفت إلي أخيه:

– دعنا من هذا الآن وأخبرني.. ألن تجد لك عروس؟.. لقد صرت رجلًا في الخامسة والثلاثين، ولا أظنك تنوي الترهبن بعد وفاة رحمة.

التمعت عينا عاصم بدموع حاول جاهدًا ألا تنهمر علي وجنتيه وأجاب بصوت مختنق:

– لا أتخيل حياتي مع أخرى يا أخي.. ما زال طيفها يسكن الغرفة حتى تكاد أصابعي أن تتحسسها.

أجابه الحاج بحزن قائلًا:

– كفاك حزنًا يا عاصم، فالحزن لن يعيد مَن ذهب.. انظر إلى نفسك.. هل ستمضي حياتك كلها بلا زواج؟.. لقد رفضت بشدة الزواج من أخرى في حياتها رغم عدم إنجابها، وعارضت رغبتنا كلنا حتى فعلت ما تريد، ولكن اليوم لابد لك من امرأة ترعاك وترعى شئونك.

– أرجوك يا حاج، دعني وراحتي.. وأنا حين أريد الزواج سأخبرك.

قال الحاج إبراهيم وهو يضربه في كتفه مداعبًا محاولًا تخفيف الكآبة التي خيّمت على الحجرة:

– هذا معناه اسكت يا إبراهيم ودعني وشأني.. حسنًا سأصمت الآن.. ولكني لن أتوقف عن جلب العرائس لك.

– حاشاي أن أقول مثل ذلك يا حاج، فأنت أخي وأبي الذي ربيتني، ومقامك فوق رأسي.

– بارك الله فيك يا عاصم، ورزقك الزوجة الصالحة التي تطيب جراحك.

– وفيك يا أخي.. سأتركك الآن لخلوتك، وأخلد أنا إلى النوم في غرفتي.

– ولو أني أعرف أنك لن تنام وتحاول التملّص مني، ولكن اذهب في أمان الله.

قبّل عاصم يده وانصرف نحو غرفته الذي ما أن دخلها حتى انهار بجسده فوق السرير، وهو يلتقط صورة لفتاة في أواخر العشيرينات، وهو ينظر لها بنظرة مغلفة بالحزن والحنين واللهفة وهو يقول بصوت باكٍ مسموع:

- آهٍ يا رحمة.

بدا له طيفها وكأنها تسقي الزهور التي زرعتها في شرفة غرفتهما، ثم تنظر له وتبتسم بدلال ورقة، قبل أن تجلس بجواره على السرير وتضع كفها على خده، حاول أن يمد إليها ذراعيه ليضمّها ضمّة تخفف من اشتياقه لها، إلا أنه أدرك بعد فوات الأوان أنها اختفت وأنه يحتضن الهواء، فلم يتمالك نفسه من البكاء، وانهمرت دموعه كالسيل على وجنتيه وهو يكرر بحرقة قائلًا:

- آهٍ يا رحمة.. رحماك يا إلهي.

قالها وعقله يستعيد ذكرى حياتهما معًا، فهو لا يذكر يومًا مرّ به منذ أن وعى لهذه الدنيا لم تكن رحمة إحدى تفاصيله، فهي ابنة العم التي قضى طفولته يجلب لها الحلوى، ويدافع عنها إذا ما تعرّضت لما يضايقها حتى من عمه نفسه، وعلى صغر سنه.. استوسم فيه الجميع رجولة مبكرة فأيقنوا بسعادة أنهما سيكونان زوجين رائعين، ولم يكد يبلغ الثامنة عشرة من عمره حتى تقدم لخطبتها وتحدد موعد زفافهما، فلم يُـرَ عاصم أسعد حالًا في أي يوم أكثر من هذا اليوم، وسرعان ما صارت رحمة زوجته على سنة الله ورسوله.

ولأن الحياة بخيلة بطبعها، ترفض أن تمنح أي أحد سعادته كاملة، فكان لابد أن تمنحه الحياة ما ينغّص عليه سعادته، فمرّ العام الأول، ثم

الذي يليه دون أن تنجب رحمة أو يبدو عليها أي بوادر للحمل حتى وإن كان كاذبًا، وازدادت الضغوطات عليه من أمه وأبيه وأخيه وعائلته جميعًا، منهم مَن ينصحه بتطليقها.. وآخر ينصحه بالزواج من أخرى، وحتى رحمة.. انضمت إليهم تخبره باكية أن عليه أن يتزوج..

– عاصم.

– نعم يا حبيبتي.

– أنت تحبني أليس كذلك؟

شعر بالقلق ينهش قلبه، فهذه المقدمة الهادئة توحي أن خلفها عاصفة مدمرة، فأجاب بحذر:

– بالتأكيد.

– إذًا يجب أن تتزوج.

أصابه الذهول من قولها، وتعجّب أكثر من رباطة جأشها الظاهري وهو يعلم أن باطنها يفور كالبركان وقال:

– ماذا تقولين يا رحمة؟

أجابته وهي تحاول اصطناع المرح لتهوّن عليه وعليها الأمر وقالت:

– أقول أنك يجب أن تتزوج، بل لقد اخترت لك العروس أيضًا، اسمها سلمى.. ابنة الحاج محمود كبير الناحية الشرقية، فتاة رائعة كما أنها إناث عائلتها اشتهرن بخصوبتهن.

– رحمة.. هذا لن..

– لا تقل شيئًا يا عاصم.. أنت من حقك أن تنجب أطفالا يملأون عليك الدنيا.. ثم إنك من عائلة الماوردي ويجب أن يكون لك ذرية.

أمسك ذراعها برفق وجذبها إلى صدره وقال:

– لقد أنجبت بالفعل.

نظرت له بدهشة وهمّت أن تقول شيئًا إلا أنه قاطعها قائلًا:

– أنجبت فتاة رائعة اسمها رحمة.. هي ابنتي وأختي وحبيبتي وزوجتي.. ولن أتخلى عنها أبدًا مهما حدث.

سالت دموعها بغزارة وهي تبتسم بسعادة وتلقي بنفسها في حضنه كأنها تلتمس منه الأمان، فطوّقها بذراعيه وهو يربّت على رأسها بحنان، مرّت السنوات كقطار طويل يقف كل حين عند بعض الأحداث الفارقة، مثل وفاة أبيه وبعدها أمه بشهور قلائل، وتولى أخوه إبراهيم رعايته والذي يأس من أن يقنعه بالزواج من جديد، إلا أن قطار عمره وقف تمامًا عند تلك الحمّى المجهولة التي أصابت رحمة ذات ليلة، وكأن الحياة حين رأته راضيًا هناءًا رغم عدم إنجابه، فأصرّت أن تنتزع منه أعز ما يملك، فرقدت رحمة أسيرة فراش المرض وحرارتها تأبى الانخفاض رغم المساعي والماء البارد الذي صبّه على رأسها، كانت المسكينة ترتجف كمن أصابه الصرع، ولا تتوقف عن ترديد اسمه والنداء عليه، وهو يجلس بجوارها عاجزًا يتمتم بالأدعية والرُقى، لعلها تبرأ.. وجاء طبيب الواحة فما عرف لهذه الحمى سببًا ولا علاجًا، حتى عادت روحها إلى بارئها، بعد ثلاثة ليالٍ من المرض، فتمزق قلبه إربًا، ولم يعد يستسيغ طعم الحياة.. ولولا بعض الإيمان في قلبه لقتل نفسه ليلحق بها..

بلغ به الانهاك مبلغه، فأعاد الصورة إلى مكانها واعتدل في نومته لينام على جانبه الأيمن ويردد أذكار النوم بخفوت ويستسلم للنعاس وهو يدعو الله أن يراها في أحلامه..

الفصل الثالث

صالح الماوردي

بدا الظلام حالكًا في تلك الليلة التي غاب عنها القمر، وقد ارتدى الكون ثوبه الأسود المرصع بجواهر صغيرة متلألأة من النجوم، حتى هوام الأرض انتابها التوجس من هذه الظلمة المقبضة فامتنعت عن إصدار أي صوت يخدش هذا السكون المقدس، دائمًا ما يقولون أن أحلك أوقات الليل ظلامًا هي قبيل بزوغ الفجر بقليل، انعكست هذه الظلمة على نفس صالح فزادتها إظلامًا، فلم يعد يرى الحياة سوى بمنظار أسود قاتم اللون، وهو يفكر في أنه يجب أن يجد حلًا بسرعة، هو لن يستطيع الانصياع لوالده ويتزوج من إحدى بنات الواحة، فقلبه معلّق بـ «مها» الفتاة القاهرية التي تعرّف عليها في إحدى سفرياته إلى القاهرة، كما أنه لا يستسيغ العيش في الواحة وسط خرافات لا يتقبّلها عقله، لابد أن يجد حلًا، أنصت إلى أذان الفجر يتردد في جنبات القرية، بينما الحركة الخافتة بالأسفل تدل على استيقاظ أمه لتحضير ماء الوضوء لأبيه، بدا راغبًا في التحدث معه لعله يستطيع إثارة عطفه ومشاعر أبوته، فالحاج إراهيم رغم صرامته إلا أنه حنون وطيب القلب، تجهّز للنزول من غرفته وفي طريقه التقى بعمه عاصم الذي يقاربه سنًا وتربطه به علاقة قوية، فقال محييًا:

– صباح الخير يا عمي.. كيفك حالك؟

– صباح الخير يا صالح.. أنا بخير والحمد لله.. أرجو أن تكون أنت أيضًا بخير.

أجابه صالح بابتسامة خفيفة:

– بخير والحمد لله يا عم.

نظر له عاصم معاتبًا وقال برفق:

– لماذا تغضب أباك منك يا ولد؟

زفر صالح بيأس وأجاب قائلًا:

– أبي لا يفهمني يا عمي وأنت تعرف هذا جيدًا.. أبي يريدني أن أصبح مثله.. درويشًا أهيم في طرقات الواحة كل يوم، وأتزوج فتاة لا أعرفها وأنجب أطفالا كثيرين، وحين يكبرون، سأجبر كبيرهم أن يفعل مثلي.. وهكذا في دائرة لا فكاك منها.. أنا لن أحيا هكذا.

اكتسى صوت عاصم بالحزم وهو يقول بقوة:

– تأدّب في الحديث عن والدك يا صالح، فأبوك ليس درويشًا هائمًا كما تقول، إن كل ما تراه في هذه الواحة بفضل أبيك بعد فضل الله سبحانه وتعالى، كل هذه الثمار والبساتين التي تزخر بها الواحة جعلنا الله سببًا في خروجها وسقياها، منذ قدوم الماوردي الكبير إلى هذا المكان المقفر.

– حتى أنت يا عمي تؤمن بهذا.

– كلنا نؤمن بهذا يا ولدي، وقد توارثنا هذا الإيمان كابرًا عن كابر.

أشاح صالح بيده وقال:

– أما أنا فلا أؤمن بمثل هذه الخراف...

وضع عاصم يده على فمه يمنعه من الاسترسال وقال:

– إياك أن يسمعك أبوك تردد مثل هذا الكلام.. والآن كفى تنطعًا وهيا للصلاة.

انطلقا معًا إلى المسجد لأداء الصلاة، وما أن أتمّوها حتى عاد ثلاثتهم بعد انضمام الحاج إبراهيم إليهم، وبمجرد أن دلفوا إلى الدار حتى توجّه الحاج إبراهيم ناحية الخلوة وينادي على صالح دون أن يلتفت إليه قائلا:

– صالح.

نظر صالح إلى عمه يستفسر منه عمّا قد يكون سبب نداء والده إلا أن نظرات عاصم نمّت عن عدم الفهم، وأشار له برأسه أن اتبعه، فتبعه بصمت دون أن يفهم شيئًا..

– ادخل وأغلق الباب خلفك جيدًا.

قالها الحاج إبراهيم وهو يشير لصالح بالدخول الذي نفّذ مطلب أبيه وهمّ أن يجلس إلا أن الحاج استوقفه قائلًا:

– بالمفتاح يا ولدي.

أحكم صالح غلق الباب بالمفتاح كما أمره أبوه الذي راح يتمتم بكلمات غير مفهومة، ميّز صالح من بينها ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾، بينما يواصل الحاج فتح الأقفال السبعة التي تغلق الباب إلى ضريح الماوردي الكبير..

- اتبعني.

بدا صوت الحاج أبرد من الثلج وهو يقولها حتى لقد شعر صالح بقشعريرة باردة تجتاح جسده فتبعه في صمت محاولًا التغلب على فضوله وهو يراقب أباه يتوجّه ناحية حوض رخامي صغير في ركن من أركان الغرفة وبداخله في المنتصف تمامًا استقر دورق نحاسي متوسط الحجم أشار له الحاج وهو يشمّر عن ساعديه، ففهم أن والده يطلب منه أن يسكب له الماء ليتوضأ ففعل، ثم حمل الحاج الدورق منه وقال:

- توضأ.

- ولكني ما زالت على طهار.....

قاطعه الحاج بصرامة وقال:

- توضأ.

لم يجد مفرًا من الانصياع لأمر والده فتوضأ، ثم سار خلف أبيه وهو يتوجّه ناحية البئر ويهبط درجاته الحلزونية الضيقة، وقد استعاد ما سمعه منذ الصغر حول هذا البئر وأن مَن فجره هو جده الماوردي الكبير كنوع من أنواع الكرامات التي يقوم بها الأولياء والصالحين، ولكنه لم يكن يصدق، حتى الطعم السكري الذي يتميز به ماء البئر والذي كان سبب تسميته بالماوردي نظرًا لأنه يشبه طعم ماء الورد، ربما كان له تفسير منطقي غير خرافة الكرامات هذه، على أن المثير في الأمر أن هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها البئر رأى العين، وجد نفسه أخيرًا فيما يشبه كهف صخري واسع يتشعب منه ممرات طويلة في كل الاتجهات وقد بدا أنها تنتشر أسفل الواحة كلها، أما أحجاره فكانت تشبه الرخام أو الجرانيت الأسود، وفي

منتصف الكهف تفور مياه البئر من باطن الأرض كأنها فسقية وتسيل في روافد صغيرة حتى تتوزع على الممرات، بدا المنظر بديعًا للغاية فخلب عقل صالح وشرد فيه طويلًا، وأمام نظراته الذاهلة.. وجد والده يرتدي عباءة بدا عليها القدم وأمسك كتابًا منقوش بطلاسم المساخيط التي يجد أطلالهم عند أطراف الواحة، ويردد تعاويذ وعزائم لا يفهم منها شيئًا..

– أبي.. ماذا تفعل؟

لم يعره الحاج أي اهتمام واستمر يتلو تعاويذه وعزائمه لدقائق أخرى، قبل أن يمسك بالعصا بإحكام ويتوجّه نحو البئر، فإذا بالماء يسكن رويدًا رويدًا، ثم يشير الحاج بطرف عصاه باتجاه معين فيجري الماء متتبعًا العصا، ثم يعود الحاج فيشير لاتجاه آخر فيجري الماء في الاتجاه المغاير وكأنه ينجذب إلى العصا كما ينجذب الحديد للمغناطيس، بشكل مستحيل بكل المقاييس، ثم أشار له الحاج أن يقترب، فاقترب منه بحذر.. في حين قال الحاج وهو يمد له يده بالعصا:

– خذ.

تردد صالح في الإمساك بها، خاصة وهو يرى يد أبيه الممسكة بها ترتعش بشدة، مما دفع الحاج لأن يقول من جديد:

– خذها ولا تخف.

امتدت يده المهتزة من التوجس تلتقطها من أبيه، وشعر بما يشبه تيار كهربي خفيف في جسده، في حين قال الحاج:

– أشِر إلى الماء.

استجاب صالح لرغبة أبيه فأشار لاتجاه ما، فوجد سطح الماء يتوتر قليلًا ثم يتحرك عدة سنتيمترات بالاتجاه الذي أشار إليه ثم يتوقف؛ تحت نظراته الغير مصدقة حتى الآن، فقال بذهول:

– غير معقول.

استعاد الأب عصاه، وخلع عنه العباءة القديمة وأعادها بحرص يشبه التقديس إلى مكانها بعد أن دسّ الكتاب بين طياتها، وهو يقول لابنه باسمًا:

– ما هو الغير معقول؟

– ما حدث الآن؟.. إنها معجزة.

– إنها ليست معجزة يا ولدي، إنه علم وأسرار.. ستتعلمها يومًا حين تصبح الماوردي.. والآن هيا نعد إلى الخلوة قبل أن نتأخر.

عادا إلى الخلوة سويًا وقد تأبط الحاج إبراهيم يد ابنه، لعله يكسر ذلك الحاجز المنيع الذي يفصل بينهما، وما أن جمعتهما جدارن الخلوة حتى جلسا بالقرب من بعضهما، فكّر صالح في أن ينتهز لحظة الصفاء النادرة هذه في محاولة إقناع أبيه بالزواج من مها، احتاج إلى خمس دقائق كاملة يستجمع فيها شجاعته قبل أن يقول بتردد:

– أبي.. أريد أن أفاتحك في موضوع؟

ابتسم الحاج إبراهيم بود وقال:

– خير إن شاء الله يا ولدي.

– لقد فكّرت في أمر الزواج كما طلبت مني؟

تهللت أسارير الحاج وارتسمت على وجهه أمارات الفرحة والسرور وقال:

– مرحى يا ولدي.. إنه يوم السعد حين تفكّر أخيرًا بالزواج، ها أخبرني.. من هي سعيدة الحظ تلك؟

انتابته حالة من التردد كادت أن تجعله يتراجع، إلا أنه تماسك في اللحظة الأخيرة وقال كأنما يزيح همًا ثقيلًا عن صدره:

– مها.

نمّت ملامح الحاج عن التعجب والدهشة، وهو يكرر الاسم لعله يتذكر صاحبته:

– مها؟.. لا يوجد فتاة اسمها مها في واحتنا كلها يا ولدي.

– إنها.. إنها.. إنها ليست.. ليست من واحتنا.

اشتعلت عينا الحاج إبراهيم بالغضب وهو يقول:

– ماذا؟.. ليست من واحتنا؟.. من أين إذًا؟

– من القاهرة.. تعرّفت عليها في إحدى سفرياتي إلى هناك.

احتقن وجه الحاج بالدماء حتى أوشك أن تنفجر أوداجه من فرط الغضب ويقول:

– من العاصمة؟.. هل تريد أن تجلب لنا العار؟.. أن تلقي ببذرة عائلتنا على قارعة الطريق؟.. أن تجلب علينا مجهولي النسب ليصيروا من عائلة الماوردي؟

تناهى صوت صياح الحاج إلى عاصم وهند فهرعا إلى الخلوة يحاولان الدخول بلا جدوى ويطرقان الباب فلا يستجيب لهما أحد، فلم يملك عاصم سوى أن يصرخ من وراء الباب قائلًا:

– اهدأ فحسب يا حاج وكل شئ سيصير على ما يرام.. افتح الباب يا صالح.

بينما يتعالى صوت الحاج إبراهيم صارخًا:

– أبعد أن ربيتك وجعلت منك رجلًا، تريد الآن أن تمرّغ وجهي في الطين؟

– يا أبي.. لم كل هذا؟.. إنها فتاة جيدة.. وأهلها طيبـ.....

قاطعه الحاج صائحًا:

– لا تقل أبي هذه مرة أخرى.. فأنا لست أبا أحدٍ بعد اليوم.. جيدة.. هه.. وأهلها طيبون؟.. أهذا ما أقنعوك بها أيها الغر الساذج؟.. تريد أن تتزوج من فتيات العاصمة يا صالح؟.. صالح؟.. أي صلاح هذا؟.. كان الأجدر بي أن أسميك طالح.

حاول صالح أن يتكلم ليدافع عن نفسه وعن حبيبته إلا أن الحاج دفعه بقوة جعلته يرتطم بجدار الخلوة بعنف، بينما اتجه الحاج لفتح الباب وهو يقول:

– وا أسفاه على ابني.. وا أسفاه على تربيتي لك.

بادرته هند قائلة:

– اهدأ يا حاج، هو ابنك وطوع أمرك.. وهذا كله من فعل الشيطان.

– لم يعد لي أبناء يا هند.

سأله عاصم وهو يلمح صالح يهرع بغضب نحو غرفته قائلًا:

– ماذا حدث لكل هذا يا حاج؟

أجابه إبراهيم بغيظ قائلًا:

– هذا العاق الجاحد يريد أن يتزوج فتاة مجهولة النسب من العاصمة؟

غطّت هند فمها بكفيها في ذعر في حين توترت ملامح عاصم بشدة وقد استشعر خطورة الأمر، فما طلبه صالح كان كفيلًا بأن يصيب تقاليد الواحة التي توارثتها عبر مئات السنين في مقتل.. وهو أمر لن يسمح به أحد، حتى لو كان الثمن صالح نفسه...

* * *

الفصل الرابع

مها رشاد

إلتوت أعناق الشباب بجامعة القاهرة فور دخول مها رشاد تتابعها نظراتهم، وقد أصدر بعضهم صفير إعجاب لعله يلفت بذلك نظرها إليه، إلا أنها لم تعِر أحدهم اهتمامًا، واستمرت في طريقها حتى قابلت إسراء صديقتها التي بادرتها قائلة:

– كالعادة لم يسمح لنا دكتور رؤوف بدخول المتأخرين، وبالتالي لدينا ساعتين من الفراغ.

مطت مها شفتيها باستياء:

– بعد كل هذه المعاناة في الطريق، والزحام الذي لا يطاق، وفي النهاية لا نستطيع دخول المحاضرة.

أطلقت إسراء ضحكة مجلجلة وهي تقول:

– مها.. أفيقي.. أنتِ لا تعانين مثلنا يا حبيبتي، فوالدك المبجّل قد اشترى لكِ سيارة من أحدث طراز، والمزوّدة بكافة الكماليات، أما نحن من أبناء الطبقة المتوسطة المسكينة فنعاني في محطات المترو لنصل إلى هنا.

نظرت لها بغضب مصطنع وقالت:

– يا لكِ من حقودة.

أجابتها إسراء من بين ضحكاتها قائلة:

– لا بأس ببعض الحقد الصحي، والآن هيا لتدعوني لكوب عصير منعش في المقهى الذي يجاور الجامعة.

ضحكت مها بمرح ثم قالت مشيرة إلى إحدى أغاني مطرب عراقي شهير وقالت:

– هيا يا مستبدة.

انطلقا متوجهتين إلى المقهى، بينما تلوكان بعض الحكايات عن هذه وتلك، وما أن رآهما عامل المقهى حتى أسرع في تحضير طلبيهما وكأن تواجدهما ومشروباتهما المفضلة من البديهيات، وهو يشير إليهما نحو مكان منعزل نسبيًا، ولم تكد تمضِ بضع دقائق حتى كان أمامها كوبين كبيرين من عصير الكيوي الأخضر الزاهي تتراقص بداخله بذوره السوداء، بينما استقرت بجانب كل واحدة منهما أرجيلة فاخرة تدلّت منهما زوائد نحاسية، أمسكت مها بمبسمها وأخذت نفسًا طويلًا منه قبل أن تزفره ببطء، فيخرج الدخان من فمها كثيفًا ثقيلًا يتوقف في الهواء للحظات قبل أن يتبدد من حولهما، في حين قالت مها بانتشاء:

– يا إلهي كم أعشق رائحة هذا الدخان.

قلّدت إسراء صنيعها وهو تجيبها قائلة:

– إذًا أنتِ مدينة لي بالشكر يا عزيزتي لأني أنا السبب في معرفتك إياها.

جلجلت ضحكة مها الساخرة بين أرجاء المقهى وقالت:

– علام أشكرك أيها الغبية؟.. أن علمتني طريق التدخين؟

شاركتها إسراء ضحكتها وقالت:

– بالطبع، ألست سعيدة الآن؟

اكتست ملامح مها بالجدية وقد بدا عليها الحزن:

– سعيدة؟.. هل تعتقدين أنه لمجرد حصولي على كل شئ أريده يجب أن أكون سعيدة؟

نظرت لها إسراء في دهشة وقالت:

– وما السعادة غير ذلك إذن؟

– أنتِ حمقاء كالعادة، لا تعرفين قيمة أن يقضي والدك الليل بينكم، لا تعرفين قيمة أن تهتم أمك بشئونك.. أما أنا فأبي مسافر على الدوام وأمي متوفاه منذ أن كنت طفلة، ولم أعرف سوى مربيتي.

حاولت إسراء أن تغيّر من مجرى الحديث فقالت مصطنعة المرح:

– هيه لا تكتئبي هكذا يا فتاتي، فها قد رزقك الله صديقة بمثابة أمك.. هي أنا طبعًا.

ضحكت مها لدعابتها وقالت:

– لقد أفسدت لحظة شجوني.

– لا عليك سأحضر لك واحدة أخرى في وقت لاحق ولكن أخبريني..

صمتت للحظة وهي تغمز بإحدى عينيها وقالت:

– أين فارسك الوسيم؟

تنهدّت مها في هيام وقالت:

– صالح؟

– نعم صالح.. هل هناك فارس وسيم غيره؟

اصطنعت مها الغضب لتخفي خجلها وقالت:

– كفّى عن السخافة يا إسراء.

– هيا أخبريني، هل اتصل بك مؤخرًا؟

أجابتها بقنوط وهي تمط شفتيها:

– لا لم يفعل منذ فترة، أنا قلقة عليه للغاية، فهو في العادة يتصل بي كل يومين أو ثلاثة على الأكثر، ولكنه لم يتصل منذ أسبوع حتى الآن، وأخشى أن يكون قد أصابه مكروه.

– ربما يكون انشغل قليلًا، ألم تخبريني أنه يعيش في واحة بعيدة في الصحراء.

– نعم هذا ما قاله لي، وأخبرني أنه ابن أكبر عائلات هذه الواحة، وأبوه يعتبر هو الحاكم الفعلي لها.

صمتت إسراء لبرهة، ربما لتستجمع شتات أفكارها ثم سألتها قائلة:

– مها.. هل تدركين عواقب هذا حقًا؟

نظرت لها مها باندهاش وقالت:

– عواقب ماذا؟

أزاحت إسراء خصلة من شعرها انسدل على عينها وقالت:

– أنت تقولين أنه من عائلة كبيرة وأن والده هو الحاكم الفعلي لهذه الواحة مما يعني بالضرورة أنه لن يستطيع مغادرة الواحة والسكنى في القاهرة، مما يعني أنك ستذهبين للعيش معه هنا إذا تزوجتما، هل تستطيع مها رشاد سليلة القصور أن تعيش في واحة منعزلة؟

أجابتها مها وقد تغيرت ملامحها وقالت:

– يا إلهي.. كيف لم أفكر في هذا من قبل؟

– يجب أن تفكري من الآن.

شردت مها بعقلها بعيدًا وهي تستعيد ذكرى تعرّفها بصالح الماوردي، الذي جاء إلى الجامعة مرتديًا الزي التقليدي لبدو الصحراء واستوقفها يسألها قائلًا بلهجته البدوية:

– من فضلك أين المبنى الإداري؟

كانت هي أيضًا جديدة على الجامعة لكنها على الأقل تعرف أين يجب أن تذهب، فأشارت له ناحية المبنى المقصود وهي تحاول كتم ضحكاتها من مظهره، غادرها شاكرًا وهي تتابع هذا الكائن العجيب بنظراتها، إلا أنه رأته يتعرض للسخرية من بعض الشباب المرفّهين، وقد حاول في البداية ألا يشتبك معهم، حتى حاول أحدهم جذبه من ملابسه، عندها تحول في ناظريها إلى بطل خارق وهو يكيل للشاب الرقيع بضع لكمات أوقفته عند حدّه بينما وقف أصدقاءه مذهولين يخشون التدّخل، وبعدها تركهم وأكمل طريقه في هدوء دون أن يدرك أن قلبها البكر قد هيأ نفسه لاستقبال حبه..

– هل وجدت ما تبحث عنه؟

هكذا بادرته قائلة فور خروجه من المبنى الإداري بعد تتبعته إلى هناك لعل الصدفة المقصودة – تجمعهما من جديد، فنظر لها بدهشة وكأنه تفاجأ بوجودها قبل أن يجيبها قائلًا بيأس:

– للأسف الموظفة غادرت مبكرًا، وأنا يجب أن أعود إلى بلدتي الآن، ولا أعرف ماذا أفعل؟

اندفعت تقول بحماس أثار دهشته أكثر وقد بدأت جرأتها وجمالها يشقان طريق حبها نحو قلبه المتعطش أصلا لمثل هذه المشاعر:

– لا عليك، أخبرني فقط باسمك وأنا سأساعدك.

ثم انتبهت لما في جملتها من تجاوز كل الحدود فقالت:

– أقصد إن أردت بالطبع.

أجابها مبتسمًا وقد التمعت عيناه قائلًا:

– اسمي صالح.. صالح الماوردي.

مدّت إليه يدها وهي تقول:

– تشرّفنا يا صالح، وأنا مها رشاد.

صافحها وقد شعر بتيار كهربي يسري في جسده كله فور أن لمس كفها الناعم وقال بصوت متردد:

– هل.. هل لي أن أحصل على رقم هاتفك؟.. أقصد حتى أستفسر منك عمّا وصلت إليه في موضوعي.

أدركت محاولته الساذجة للحصول على رقم هاتفها، إلا أنها كتبته له على قطعة ورق صغيرة وناولتها له مبتسمة، هزّ رأسه شاكرًا

وعينها متعلقتان بملامحها، فلا يستطيع أن يحول نظره عنها، حتى استطاع أخيرًا أن ينتزع نفسه انتزاعًا وينصرف وقد ترك قلبه لديها..

– أين ذهبت أيتها الحالمة؟

أخرجها صوت إسراء من ذكرياتها، فهزّت رأسها بقوة وقالت:

– لا شيء.. لا شيء.

– وماذا ستفعلين بخصوص صالح؟

– لن أفعل شيئًا، فنحن لن نتزوج غدًا على أية حال.. أمامنا متسع من الوقت لنفكّر في كل هذا؟

قالتها وجذبت نفسًا عميقًا من أرجيلتها وهي تدرك جيدًا أن الأيام القادمة لن تكون سهلة على الإطلاق، وأن اختفاء صالح المفاجئ هذا وراءه أمر جلل.

* * *

الفصل الخامس

هند الماوردي

صار الفراش أشبه بمرجل يغلي أو مغطى بالجمر ليشوي ظهري، تقلّبت عدة مرات لعلي أستطيع النوم ولكن بلا فائدة، فقد أصبح النوم فجأة أمنية بعيدة المنال، وكيف لي أن أنام وقلبي ينشطر كل لحظة جرّاء ما حدث بين صالح والحاج، اللهم لا اعتراض على حكمك وقضائك، ولكن لمَ قضيت على النساء أن يتحملن هذا العذاب بين الزوج والابن؟.. يتشاجر الرجال كروتين يومي لأسباب قليلها يستحق وأكثرها هراء، ثم تتحمّل النساء نيران اللهفة عليهم ومحاولة إرضائهم والإصلاح بينهم، ثم يتهموننا بأننا نحن الناقصات العقل والدين!!.. إن صالح مخطئ ولا شك، كيف يجرؤ أن يأتي لنا بفتاة لا أصل لها لتكون زوجة له ويلقي في بطنها بذرة الماوردي؟!!.. أي نسل هجين هذا الذي يأتي من بذرة طاهرة أصيلة توضع في تربة شحيحة؟، ولكن هل كان الأمر يستحق كل هذا الغضب من الحاج؟ أم أن للأمر خفايا أخرى لا أعلمها؟.. أنا أعلم أنك مستيقظ مثلي تمامًا يا حاج، أعلم أنك تعيد التفكير فيما حدث اليوم، جسدك المتقلّب مثلي، وأنفاسك الغير منتظمة تشي أنك غارق في التفكير لا في النوم..

– حاج إبراهيم.

أناديه برفق بصوت أقرب إلى الهمس، إلا أنه يفضّل ألا يجيبني متظاهرًا بالنوم، ولكني لم أستسلم فعدت أكرر قائلة بإصرار وبصوت أعلى:

– حاج إبراهيم.

أجابني بهمهمة لا معنى لها قائلًا:

– هممممممم.

– أنت مستيقظ.. أليس كذلك؟

أجابني باقتضاب ودون أن يلتفت إليّ وقال:

– نعم.

اعتدلت في جلستي وقد ذهبت محاولات النوم من عيني وقلت بتردد:

– لقد كنت مبالغًا في شدّتك مع صالح اليوم.

التفت إليّ معتدلًا وقد آثر مواجهتي بدلًا من أن يوليني ظهره وقال بغضب:

– مبالغًا؟.. هل ترين اختلاط نسبنا بمجهولة النسب هذه التي يريد ابنك إقحامها علينا أمرًا هينًا؟

قلت مدافعة عن موقفي وقد استشعرت أنني اقتربت من مرادي:

– لم أقل هذا يا إبراهيم.. كل ما قلته أنك كنت مبالغًا، كان هناك ألف طريقة أخرى لنمنع ما حدث، ولكن غضبك هذا وراءه شيء ما..

التزم الصمت فأردفت قائلة وأنا أربّت على كتفه بحنان:

– قل لي ما يشغلك يا حاج.. فأنا لم أعرفك بالأمس، قلبي يحدثني أنك تخفي عني شيئًا.

تنهّد مستسلمًا وقال:

– حسنًا يا أم صالح.. سأقول لك ما يشغلني وسبب غضبي المبالغ فيه على حد قولك.

صمت قليلًا والتقط مسبحته التي ورثها عن جده ثم نظر بعيدًا بشرود وقال:

– رأيت رؤيا تكررت عدة مرات في ليالٍ مختلفة، أرى نفسي فيها وكأنني شاب وأنني أبني صرحًا ضخمًا تحت نظرات أبي وجدي الذين يبتسمان لي ويشجعانني أن أستكمل البناء بهمّة ونشاط، حتى إذا أوشكت أن أنتهى منه إذا بابننا صالح يهبط من السماء على ظهر صاعقة، فينهار البناء ويسقط صالح تحت أنقاضه.

قاطعته قائلة بفزع:

– يا حفيظ من كل سوء يا رب.

استكمل حديثه غير ملتفت لذعري وقال:

– ولم تكد تنقضي عدة أيام حتى جائني ابنك بخبر زواجه من تلك الفتاة واستشعرت قرب تحقق الرؤيا.

– لا تقل هذا يا حاج، فربما...

لم يترك لي فرصة لأكمل حديثي فهبّ صائحًا:

– ربما؟.. ربما ماذا يا هند؟.. أنت تعلمين خطورة ما أفعله، وأن هذا السر قد يكون كارثة إذا وقع في يد لا تستطيع الحفاظ عليه، وابنك هو هذه اليد.. وعمه عاصم فات أوان تلقيه للسر، أي أنني إذا مت الآن ستحل الكارثة بعد يوم واحد من موتي.

– كفانا الله الشر يا حاج إبراهيم.. أمدّ الله في عمرك وأبقاك لنا.

– دع الأمر لصاحب الأمر؛ يدبره كيف يشاء.

– ونعم بالله يا هند.

عاد يولّي لي ظهره ويلتحف بالصمت، بينما ينهش القلق قلبي لا رحمة، فالحاج إبراهيم لن يتورّع عن أي شئ يؤدي إلى أي إخلال ولو طفيف بنظام القرية، حتى ولو كان الثمن ولده الوحيد، فالعهد الذي أقسم لأبيه على حفظه لا مجال فيه للهزل، ما زالت تذكر ذلك اليوم بعد زواجها بإبراهيم، حين طرق عليهما أبوه – الذي هو عمّها في ذات الوقت – باب غرفتهما قبيل الفجر وينادي على ابنه قائلًا:

– استيقظ يا إبراهيم، فقد آن الآوان وجاءت البُشرى.

نهض إبراهيم مفزوعًا، وارتدى طاقيته الصوفية على عجل أمام نظرات هند المستنكرة لما يحدث، بينما هو لا يفهم ما يرمي إليه أبوه، فما الأوان الذي آن؟ ما البُشرى التي يتحدث عنها؟.. إلا أن حيرته وتساؤلاته لم ينسوه الأدب مع والده الذي عاد يكرر:

– استيقظ يا بني، الأوان قد آن، والبشرى قد جاءت.

– حاضر يا أبي، أنا قادم.

هرع إلى باب الغرفة يفتحه وهو يقول لاهثا:

– هأنذا يا أبي.

– الحق بي في الخلوة بعد أن تغتسل وترتدي هذه.

قالها وناوله عباءة بيضاء وعمامة بيضاء، وبردة صوفية مطرزة، بدا وكأنه سيذهب إلى احتفال ما أو مناسبة هامة، تناولها إبراهيم من يد أبيه وقال:

– حالًا يا أبي.

عاد للحجرة وهو يخلع ملابسه ويتجه ناحية المغتسل، فلم تطق هند صبرًا، ولم تحتمل كل هذا الغموض فسألته قائلة:

– ماذا هناك يا إبراهيم؟، فيم يريدك عمي؟

أجابها مهمومًا وقد أوشك على دخول المغسل وقد اضطر لأن يرفع صوته قليلًا وقال:

– لا أعلم يا هند، أبي يريدني أن ألحق به في الخلوة لأمر هام.

قالت مستنكرة بصوت خافت:

– أمر هام؟.. وفي أيام عرسنا الأولى؟

في تلك الليلة عاد إبراهيم بغير الوجه الذي ذهب به، عاد شاردًا مهمومًا وقد بدا على ملامحه أنها قد ازادت عدة سنوات من فرط القلق، على أنه في اللحظة التالية يبدو سعيدًا فخورً كأنه قائد منتصر، كيف يمكن أن يمتزج مثل هذين الشعورين في قلب واحدة في اللحظة ذاتها؟.. سألته بقلق قائلة:

– ماذا حدث؟

أجابها باقتضاب مشوب باللامبالاة قائلًا:

– لا شئ.

ردت عليه قائلة بإصرار:

– بل هناك شئ ما يحدث.. وهو أمر جلل.

نظر لها بعينين خاويتين تتصارع فيهما مشاعر الفرح بالقلق والهم في مزيج لم ترهما من قبل مطلقًا، وكأن صاحبهما لا يعرف بم يعبّر عما يجيش في صدره، وأخيرًا قال ببطء.

– لقد صرت الماوردي.

قالها ثم خيّم الصمت بعدها، فحتى كائنات الليل لم تصدر أية أصوات تلك الليلة، بينما غطّ إبراهيم في نوم عميق، واستمر هي أرقها حتى مطلع الفجر، وهي تتسائل.. هل أصبح زوجها الماوردي بحق؟

* * *

الفصل السادس

الماوردي

رغم عدم تغيّر روتين الحاج إبراهيم الماوردي، إلا أن كل أهل الواحة أدركوا أن هناك أمر جلل يحدث في بيت الماوردي، وإن لم يجرؤ أحدهم على سؤاله عما يحدث، فمن ذا الذي يجرؤ أن يتدخل في شئون الماوردي؟.. لذا اكتفى كل من مرّ بالحاج بتحيته كالعادة وهو ينظر من طرف خفي إلى ملامح الحاج التي اكتست بالهم والكآبة على غير عادته البشوشة، وقد فطن أكثرهم إلى الشرود الذي صار يعتريه، أما في جلساتهم الخاصة.. وبعيدًا عن أعين وآذان الماوردي؛ كان المنحلين من الشباب الذي لا يعرفون قدر الماوردي وهيبته في النفوس، يلمزون بيت الماوردي ويخوضون في سيرته متسائلين عن سر اختفاء صالح في الآونة الأخيرة، ولكن سرعان ما يردعهم أحد الكبار ناهيًا إياهم عن هذا التجديف، داعين الله ألا يصل مثل هذا الكلام للحاج إبراهيم فينالهم شئ من السوء.

فمكانة عائلة الماوردي الحقيقية لا يدركها سوى الناضجون وكبار السن، والذين يؤمنون حقًا أن بقاء الواحة مرتبط ببقاء الماوردي، ويردد العجائز في الليالي الصافية حكايات عن الماوردي الكبير وكيف جاء إلى هذا المكان المقفر حيث لا ما ء ولا زرع ولا بشر، ليتعبّد لله

رب العالمين فأجرى الله على يده الكرامات، وجاء الناس من كل صوب يتبرّكون به ويسألونه النصح والدعاء.

عاد الحاج من جولته الصباحية المعتادة، فناول عباءته وعصاه لزوجته في صمت، وتوجه ناحية الخلوة دون أن ينبس ببنت شفة، ولا حتى بإلقاء السلام، ألقى بجسده على إحدى الوسادات المتناثرة في الغرفة وأسند ظهره ورأسه للحائط ونظر للسقف برجاء وقال:

– يا رب عفوك ورضاك.. لطفك بعبدك الماوردي يا رب.

أغمض عينيه ليمنع تلك الدمعة التي توشك أن تنسال على وجنتيه، ولم تكد تمر بضع دقائق حتى انتظمت أنفاسه، وبدا للرائي أن يغط في نوم عميق، ولكن هذا المظهر الهادئ كان يخفي بداخله بركان من الذكريات التي تفجّرت في عقله كما البركان، مستعيدًا تلك الليلة التي صار فيها الماوردي، حين جاءه أبوه يوقظه قبيل الفجر ويدعوه ليلحق به في الخلوة بعد أن يغتسل ويرتدي ما جلبه من ملابس، تملّكته الدهشة والحيرة حينها ولكنه لم يملك سوى أن يلبي أباه فيما طلب..

– ادخل يا بني.

قالها أبوه فور وصوله إلى الخلوة وهمّ أن يطرق الباب إلا أن صوت أبيه أعفاه من الطرق، وإن لم يستطع منع نفسه من التساؤل كيف عرف أبوه أنه وصل دون أن يطرق الباب، ولكنه نفض هذه الأسئلة عن رأسه ودخل الباب، ليجد أباه جالسًا على الأرض وأمامه مصحفه ومسبحته وهو يشير له بالجلوس أمامه، فأطاعه على الفور.

نظر إليه مليًا وعلى شفتيه ارتسمت ابتسامة راضية وهو يقول:

– مبارك يا بني.

هز إبراهيم رأسه بعدم فهم وقال:

– بارك الله فيك يا أبي، ولكن على ماذا؟

– الليلة جائتني البشرى يا ولدي، رأيت في المنام وكأننا أنا وأنت قد ذهبنا إلى الحج.

تهلل وجه إبراهيم وقال بفرح:

– مرحى يا أبي، بشّرك الله بكل خير.

أكمل أبوه حديثه دون أن يلتفت لما قاله وأردف قائلًا:

– ولكننا حين وصلنا إلى مكة لم نجد الكعبة، ونظرنا فإذا ببناء غير مكتمل مكانها وثمّة رجل مسن وشاب يستكملان البناء وحولهما أناس كثيرون يتفرجون عليهما ولا يتقدم لمساعدتهما أحد، فسألنا من حولنا عنهما فقالا أنهما سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل يرفعان قواعد البيت، فهممنا أن نساعدهما ولكني سمعت صوتًا يقول: «دع البناء لإبراهيم» ويكررها عليّ حتى اسيقظت.

قال إبراهيم وقد اختلط عليه كل شئ:

– رؤيا خير إن شاء الله يا أبي.

تجاهل أبوه كلماته للمرة الثانية واستكمل قائلًا:

– إن تفسير هذه الرؤيا يا ولدي أن الإذن قد أتى لتكون أنت الماوردي.

– يا أبي أرجوك.. لم أعد أفهم شيئًا.

– حسنًا يا ولدي.. سأقص عليك الأمر كما قصه عليّ أبي الذي هو جدك والذي سمعه عن أبيه وجده وهكذا حتى نصل إلى جدنا الماوردي الكبير.

– تفضّل يا أبي.. كلي آذان صاغية.

– جدنا يا بني اسمه محمد بن إسحاق، لم يعلم له أحد موطن أو منشأ.. فقد كان كثير السفر والترحال منذ أن شبّ عن طوق الطفولة، فيرتحل من بلدة لأخر ومن قرية لغيرها فيمكث في كل بلدة أو قرية ثلاثة أيام لا يزيد عليها ولا ينقص منها، فإما أن يستضيفه أحد أعيان القرية أو يبيت في مسجد أو حتى في الطرقات، حتى جاء إلى مصر عن طريق البحر فنزل الإسكندرية وعمره أربعون سنة إلا قليلًا، فطاف بمصر متتبعًا النيل حتى وصل إلى أقصى جنوبها، ثم اتجه شمالًا مرة أخرى حتى وصل إلى منطقة في شرق الدلتا اسمها «زوان»، فوجد فيها مخطوطًا يقولون أنه يعود إلى عصر المساخيط، وأنهم قد دونوا فيه علومًا وأسرارًا خاصة بالماء والزراعة تعلّموها من نبي الله يوسف حين جاء إلى مصر وأصاب أرضها الجفاف.

توقف أبوه قليلًا عن الاسترسال ليتجرع قليلًا من الماء ثم عاد يقول:

– وبعده شعر بكراهة للاختلاط مع الناس وقرر الاعتزال، فاتجه غربًا وأوغل في الصحراء حتى وصل إلى مكان واحتنا تلك، وكان مكانًا قفرًا لا زرع فيه ولا ماء، ولم يطأه بشر من قبل.. فنصب خيمته، وبفضل صلاحه والعلوم التي تعلّمها من الكتاب وقد كشف له الله معاني طلاسمه، فجّر البئر الذي نشرب منه إلى اليوم، وأمضى سنوات ثلاثا على هذه الحال.. يأكل مما يصطاد من حيوانات البرية ويشرب من البئر ويتعبّد لله، وقد بدأ رويدًا رويدًا يستزرع بعض الزروع تعينه على المعيشة، فغرس الأشجار والنخيل.

تطلّع الأب إلى ابنه إبراهيم يرى علامات الدهشة والتعجب المرتسمة على وجهه وهو يتذكر حين سمع هذه الحكاية من أبيه للمرة الأولى، ثم أردف قائلًا:

– ولكن يبدو أن الله أراد لجدنا أن يظل مختلطًا بالناس، فقد ضلّت إحدى قوافل الحج طريقها أثناء عودتها ومرّوا به، فلما أرشدهم إلى الطريق استأذنه بعضهم في المكوث معه، وقد توسموا فيه الخير والصلاح فأذن لهم وتزوج منهم، واستطاع إيصال مياه البئر إلى أماكن أبعد من الواحة فكثر الخير، وتوافدت عليها القوافل للتزود بالماء والمؤن، وازدادت أعداد ساكني الواحة، ولكن ظلّ جدنا محمد بن اسحاق يحاول توفير سبل حياة أفضل للواحة، حتى أطلقوا عليه لقب الماوردي واشتهر به لأن ماء البئر كان له طعم سكري يشبه ماء الورد، وصار على أبناء الماوردي وأحفاده أن يتوارثوا سره ومسئوليته نحو الواحة، فقد جعلنا الله سببًا ليرزق أهل الواحة، فإن قصّرنا أو تخاذلنا، حلّت علينا النقمة والخراب.

ساد الصمت بعد كلمات أبيه، فلم ينبس أحدهما ببنت شفة، حتى قطع أبوه الصمت بقوله:

– والآن صرت أنت الماوردي، وآن لك أن تتعلم أسرار أجدادك، ولكن يجب أن نذهب لنطهّرك.

– ولكنني طاهر يا أبي.

– أعلم يا وولدي، ولكنها الخطوة الأولى في طريقك، والآن اتبعني.

تبع أباه نحو حجرة الضريح، ومنها هبطا إلى البئر، ثم راقب أباه وهو يرتدي العباءة ويمسك بالعصا، ثم يتمتم بأشياء لم يتبينها، وبعدها

أشار للماء فتبعت طرف عصاه أمام نظرات إبراهيم الذاهلة، ولكنه أخرجه من ذهوله قائلًا:

– اخلع ملابسك عدا ما يستر عورتك.

أسرع بخلع ملابسه، بينما أكمل أبوه تمتماته، ثم رأى الماء يتحلق من حوله وكأنه هناك حاجز غير مرئي يمنعه من التشتت، ويزداد منسوبه تدريجيًا حتى وصل إلى ركبتيه.. فبطنه.. فكتفيه.. بينما يتعالى صوت والده وهو يردد بصوت جهوري:

– وجعلنا من الماء كل شئ.. بسم الله الذي خلق الإنسان من ماء، وأخرج الثمر بالماء، وخزّن في السماء الماء.. طهّرتك يا ولدي بالماء يغسل عنك ما لحق بك من درن الدنيا، وحصّنتك باسم الله العليم ليعلّمك أسراره في كونه.

ثم عاد يتمتم بالكلمات بصوت خافت قبل أن يقول:

– والآن خذ شهيق عميق ثم اكتمه في صدرك لأن الماء سيغمرك.

نفذت ما طلبه مني دون مناقشة وقد وصل الماء إلى عنقي، وما أن حبست أنفاسي حتى غمرني الماء تمامًا، واستمر للحظات بدت بالنسبة لي كالدهر، حتى كدت أختنق ولكنها سرعان انحسرت وسقطت أرضًا أعب الهواء في صدري وأسعل بقوة، فأحاطني أبي بعباءته ونظر لي راضيًا وقال:

– مبارك أيها الماوردي.

عند هذه الذكرى تناهى إليه صوت هند تطرق عليه الباب وتناديه قائلة:

– ألن تتناول فطورك يا حاج؟

أجابها بصوت واهن قائلًا:

– حسنًا يا هند، سألحق بكم.

ثم عاد ينظر إلى السماء وقال:

– رحماك يا رب.

* * *

الفصل السابع

صالح

لأيام عديدة لم يخرج صالح من غرفته، منذ مشاجرته الأخيرة مع أبيه، حتى أمه لم يعد يجيبها وهو يرى لهفتها عليه وإشفاقها على حاله، لا أحد يفهمه في هذه الواحة.. صحيح أن والده أراه بشكل لا يقبل الشك قدرته على تحريك المياه، ولكن هذا لا يعني أنه سيقبل العيش بهذه الطريقة التي يريد له أبوه أن يعيشها، لن يحيا حياته كلها لمجرد توصيل المياه لهؤلاء المتنطعين، إنه يريد أن يسافر وأن يرى الدنيا.. يخالط أناسًا غيرهم، أناس كأهل العاصمة.. هؤلاء الذين يعملون وينجحون ويثرون ثراءً فاحشًا.. لن يبقى هنا ليتعفن على هامش الحياة.. لن يـ.....

– هل يمكنني الدخول؟

قالها عاصم وهو يطرق باب الغرفة قاطعًا سيل الأفكار التي تنهمر في عقل ابن أخيه الذي اعتدل في فراشه ورفع صوته قائلًا:

– تفضل يا عمي.

دخل عاصم وقد هاله منظر صالح، فلحيته النابتة بغير انتظام وملابسه الغير مهندمة تشي أن صالح يمر بوقت عصيب حقًا.. جلس بجواره على الفراش وقال بصوت حاني:

– كيف حالك؟

نظر له صالح بحزن وقال:

– كما ترى يا عمي.

فقال عاصم بإشفاق:

– يا ولدي هذه ليست نهاية العالم، وأنت ما زلت في مقتبل شبابك وأمامك العمر طويل لتعرف غيرها وتحب غيرها، وستنساها صدقني.

أجابه صالح بحدة وقال:

– وأنت يا عمي هل نسيت العمة رحمة؟

شعر عاصم بخنجر حاد يشق صدره ويشطر قلبه نصفين، وقد بدت ملامح الألم على وجهه وقال:

– سامحك الله يا صالح، يا بني إننا نحب نصيبنا وقدرنا، لا أن نقف في وجه الأقدار ونقول أننا نحب، لكم فارق محبون وعشاق ثم أكملوا حياتهم ليكتشفوا أن مرّ بهم ليس حبًا.. خاصة في مثل سنك.

– أنا لست صغيرًا يا عمي، وأعرف ما أفعله جيدًا.

أجابه عاصم بجدية قائلًا:

– لا يا صالح.. أنت لا تعرف ما تفعل.. أنا أعلم أنك في سن يصوّر لك أنك نضجت وأنك تفهم كل شئ، ولكن هذا غير صحيح للأسف، أنت تحاول إثبات نفسك وهذا أمر جيد، ولكن ليكن هذا في شئ مفيد.. في تحملك للمسؤلية، أما أن تغضب هكذا وتخالف كل ما تربينا عليه فهذا تمرّد وليس إثبات لذاتك.

لاذ صالح بالصمت مما جعل عاصم يردف قائلًا:

– هل تستطيع أن تخبرني على أي أساس اخترت فتاتك هذه؟

أجاب صالح بعناد وقال:

– نعم فأنا أحبها وهي تحبني.

– كيف ومتى وعلى أي أساس؟

– التقيتها في حرم الجامعة وأحببنا بعضنا.

هتف عاصم باستنكار وقال:

– التقيتما في حرم الجامعة؟!!.. تقابلتما عدة مرات على أحد المقاهى.. رسمتما أحلامًا وردية حول الحياة والحب والزواج في بضع لقاءات؟.. هل هذا هو الأساس الذي اخترت عليه من ستكون زوجتك؟

احتد صالح قائلًا:

– ألا يكفي أننا نحب بعضنا؟

– عن أي حب تتحدث؟.. هل تعرف شيئًا عن تربيتها؟.. عن أهلها؟.. عن البيئة التي نشأت بها؟.. هل تعرف كيف يعيش بنات العاصمة؟.. هل وضعت في حسبانك اختلاف العادات والتقاليد بيننا وبينهم؟.. قل لي فكرت إذا كانت ستستطيع العيش وسطنا هنا في الواحة؟

خيّم الصمت بعد كلمات عاصم المنفعلة وقد بدا على صالح بعض الاقتناع أو بوادر التفكير فيما قاله عمه الذي قال برفق:

– سأدعك الآن لتفكر في كلامي وسنتحدث لاحقًا.. هداك الله يا بني.

انصرف عاصم تاركًا ابن أخيه غارقًا في أفكاره، عمه محق بالفعل.. مها لن تقبل أن تعيش في الواحة، لن تترك العاصمة والرفاهية التي يوفرها لها والدها وتأتي للعيش معه هنا على هامش الحياة، هو نفسه لا يتصور حياته في الواحة وهو من أبنائها وقضى عمره فيها فما باله بها التي عاشت في أحضان العاصمة وانفتاحها، عاد يسترجع لقائهما الأخير بعد أن جمعت بينهما عدة محادثات هاتفية..

– صالح كيف حالك؟

قالتها بابتسامة رقيقة حين رأته، فأشرق وجهه متهللًا وقال:

– بخير والحمد لله، وأنت كيف حالك؟

– بخير.. اجلس.

جلسا متقابلين ونادى على النادل ليطلبا شيئًا يشرباه، وقد فوجئ بها تطلب أرجيلة وهو ما لم تفعله في وجوده من قبل، فقال مستنكرًا:

– هل تدخنين؟

أجابته بلامبالاة قائلة:

– نعم.. وماذا في هذا؟

قال صالح بعصبية:

– ولكن أنا لا أقبل أن تكون زوجتي مدخنة.

أجابته بهدوء وقالت:

– حبيبي كل الرجال يدخنون، فلماذا لا أدخن؟.. الضرر واحد في الحالتين.. لا يجب أن نرضخ لمثل هذه الأفكار المتخلفة.

– ولكن شكلنا لن يكون مقبولًا أمام الناس.

– فليذهب الناس إلى الجحيم يا حبيبي، المهم أن نكون سعداء، ثم إننا في العاصمة ولسنا في واحتكم، وهذا الأمر مقبول هنا.

لم يرد إفساد لحظة لقائهما في نقاش لا طائل منه، فقال ملاطفًا:

– أوحشتني كثيرًا.

أجابته بهيام وقالت:

– وأنت أيضًا أوحشتني للغاية، لا أتصور حياتي بدونك.

– وأنا أيضًا لم أعد أطيق الحياة بعيدًا عنك.

– لقد تحدثت مع أبي عنك.

امتزج بالفرح بالقلق على وجه صالح وقال:

– حقًا؟.. وماذا قال؟

– قال أنه ليس عنده مانع من ارتباطنا، ولكنه يجب أن يقابلك أولا ليتعرف عليك.

أسعده الخبر بشدة وقال بفرح:

– حقًا؟.. هذا أسعد يوم في حياتي.. يجب أن ترتبي لي موعد للقاءه في أقرب فرصة.

– بالتأكيد يا حبيبي.. فأنا أيضًا متلهفة لقضاء بقية حياتي معك.

– أحبك بجنون.

– وأنا أعشقك يا حبيبي.

استغرق صالح في ذكرياته وأفكاره دون أن ينتبه لقدوم الليل، لقد وجد الحل أخيرًا.. سيرحل من الواحة ويتوجه للقاء والد مها، وهناك سيتدبر أمره في العاصمة ويحصل على عمل ويحقق النجاح

الذي يتمناه، سيصبح حتى أغنى من والدها، وسيتزوج مها حتى لو كان هناك اختلاف بينهما العادات، سيتغلب حبهما على كل اختلاف، وبالتأكيد هي لن ترفض أن تتغير من أجله، فهي تحبه وستفعل كل ما يرضيه.. يجب أن يرحل.

وفي اليوم التالي توجهت هند لإيقاظه كالعادة، ولكنها سرعان ما أطلقت صرخة جعلت كل من عاصم والحاج إبراهيم يسرعان إليها عند غرفة صالح، في حين سألها الحاج قائلًا:

– ماذا حدث؟

أشارت إلى الغرفة في صمت، فدقق كلاهما النظر في الغرفة، فقد كانت الغرفة على حالها تمامًا باستثناء شيء واحد فقط مختلف.. أن صالح لم يكن موجودًا.. لقد رحل.. وكانت صدمة زلزلت كل مَن بالبيت.. كلهم بلا استثناء.

* * *

الفصل الثامن

رشاد السيوطي

ساد جو من التوتر والارتباك في صفوف موظفي شركة السيوطي للمقاولات، إحدى أكبر شركات المقاولات في الشرق الأوسط والتي يقدّر رأس مالها بمليارات، فور إعلان وصول صاحب الشركة رشاد السيوطي الذي شدّ قامته الطويلة وهو يمشي بخطًى واسعة باتجاه مكتبه، بينما مجموعة من كبار الموظفين يهرولون خلفه محاولين مجاراة خطواته السريعة، وهم يتلقون تعليماته المنطلقة من فمه كالرصاصات في كل اتجاه، وأخيرًا وصل إلى مكتبه فأسرع مساعده يلقي عليه التحيات ويحمل عنه حقيبته ويهرع لفتح باب المكتب له، وما أن استقر على كرسيه حتى دخل مسعود الساعي حاملًا قهوته التي يشربها مضبوطة كالمعتاد، ثم ينسحب خارجًا في صمت، وقد سبقه كافة الموظفين ولم يبقَ غير مساعده جمال، الذي أغلق باب المكتب خلف الجميع وعاد يقف في صمت وهو يتابع رئيسه يتصفح عدة تقارير على مكتبه، قبل أن يرفع عينيه إليه ويقول:

– ما أخبار مناقصة طريق السويس؟

أجابه جمال بسرعة وكأنه كان يستعد لهذا السؤال تحديدًا وقال:

– كل شئ على ما يرام يا سيدي، وستتلقى تأكيدًا بحصولنا عليها خلال ساعات.

– عظيم.

– وشحنة إيطاليا؟

– ستصل غدًا إلى الميناء يا سيدي، وقد تواصلنا مع رجالنا هناك لتسهيل دخول الشحنة، والسيد يوسف سيكون هناك منذ صباح.

– وأين يوسف الآن؟

– في الطريق وسيأتي خلال نصف ساعة كما أخبرني.

– حسنًا اذهب أنت الآن، واجعل يوسف يدخل عليّ فور وصوله.

– أمرك يا سيدي.

– قالها وانصرف تاركًا رشاد يكمل قراءة التقارير بتمعن ويحتسي قهوته بتلذذ، قبل أن ينهض متوجهًا لدورة المياه الملحقة بمكتبه الأوسع من الكثير من غرف التي يسكنها أسر مكونة من خمسة أفراد، كانت الأرضية تمثل منظر ثلاثي الأبعاد لأعماق البحار بينما اكتست الجدران بمزيج من الجرانيت والرخام، وفي أحد الزوايا انتصبت مرآة عملاقة أمام الحوض، اغترف بعض الماء الساخن بكفيه، وأطلقهم على وجهه غير مبالٍ بقطرات الماء التي تناثرت على بذلته الفاخرة، كرر الأمر عدة مرات ثم استند على الحوض بذراعيه وهو ينظر إلى وجهه بداخل المرآة، متأملًا الشيب الذي غطى رأسه تمامًا والذي تحوّلت شعراته على خيوط فضية ناعمة تنساب فوق رأسه، بينما انتفخ أسفل عينيه من أثر الإجهاد والسهر المتواصل لسنوات طويلة، سنوات من الشقاء والتعاسة قضاها في بيت

زوج أمه الذي كان يكرهه، وسرعان ما ترك له البيت وانطلق يشق طريقه في الحياة متسلحًا بذكاء حاد وإرادة فولاذية استطاع بهما أن يجنّب نفسه مصير أطفال الشارع والمشردين، وإن لم تختلف ظروفه عن ظروفهم كثيرًا ولكنه كان الأذكى، فبعد أن هرب من بيت زوج أمه إلى الشارع ترك، أسيوط مسقط رأسه وتوجه على ظهر أحد القطارات إلى القاهرة.. وهناك دخل أول مسجد في أول منطقة شعبية وما أكثرها بالقاهرة قابلته، لم يكن متدينًا بطبيعته ولكنه كان يعرف جيدًا أن المسجد هو أولى خطواته لينجو من مصير قاتم كطفل شارع، كان كل صلاة يصلي بالصف الأول خلف الإمام مباشرة ثم يسلَم عليه ويخرج يسير في الطرقات بلا هدى محاولًا كتم صراخ معدته الخاوية مستعينًا بإرادته الحديدية، وألا يمد يده للسؤال مهما كلفه الأمر، وبعد صلاة العشاء وقد بلغ منه الإعياء مبلغه، سلّم على الشيخ الذي أحس بخطب ما فسأله قائلًا:

– ما بك يا بني؟

أجابه رشاد بوهن قائلًا:

– لم آكل شيئًا منذ البارحة.

– لا حول ولا قوة إلا بالله، ولماذا لم تقل يا ولدي؟

– لست سائلًا يا شيخ، مازلت شابًا وأستطيع العمل.

لم يستطع الشيخ حسن منع نفسه من الإعجاب بالفتى الشاب الذي لم يتجاوز السابعة عشر من عمره، فقال:

– حسنًا يا ولدي، قم معي الآن لتأكل شيئًا وبعدها نتحدث.

اصطحبه الشيخ إلى أقرب مطعم وطلب له ما شاء من طعام، وهو يراقب الفتى يأكل بنهم حتى شبع واسترخى في مقعده، فسأله قائلًا:

– ما اسمك يا بني ومن أين جئت؟

أجابه رشاد وهو ينظر له بامتنان:

– اسمي رشاد من إحدى القرى التابعة لمحافظة أسيوط.

– ولماذا جئت إلى القاهرة؟.. هل لك أحد هنا؟

هز رشاد رأسه نافيًا وحكى له قصته باختصار، فقال الشيخ بعد أن استمع لحكايته كاملة دون أن يقاطعه:

– لا حول ولا قوة إلا بالله.. لم يعد في قلوب الناس رحمة، ستأتي معي إلى البيت وغدًا يفعل الله ما يشاء.

– لا أريد أن أثقل عليك يا شيخ حسن.

– لا تقل هذا يا ولدي، فالله أمرنا بالإحسان إلى عابري السبيل، والآن هيا إلى البيت.

لم يكد يمضى شهر، حتى استطاع رشاد أن يجد عملًا لدى تاجر غلال بوساطة من الشيخ حسن، فأبلى بلاء حسنًا واعتمد عليه صاحب وكالة الغلال تدريجيًا معتمدًا على كفاءته وأمانته، ولكنه سرعان ما اكتشف أن الوكالة تخفي نشاطًا آخر، نشاطًا أكثر غموضًا.. ودموية.. ففي ليالي بعض الشهور تتحول الوكالة إلى مخزن أسلحة، ولا يكاد يمضي عدة أيام حتى تختفي الأسلحة من جديد وتعود الأمور لطبيعتها، ورغم اكتشافه للأمر لم يفتح رشاد فمه بأي كلمة، حتى أتى اليوم الذي فاتحه فيه صاحب الوكالة في الأمر بعد أن اختبر إخلاصه ووثق فيه، ولم يتردد رشاد في القبول، فقد كانت هذه هي بداية الطريق للثراء والنجاح، وبالفعل انخرط رشاد في عمليات تهريب السلاح، وكالعادة استعان بذكاءه وإرادته في التفوق على أقرانه، حتى أنه حلّ

محل صاحب الوكالة بعد وفاته في شبكة علاقات التهريب، وأنشأ شركة المقاولات لتكون واجهة لأعماله الحقيقية، حتى صار أخيرًا من أهم رجال الأعمال في مصر والشرق الأوسط كله، ولكنه نسى وسط هذا الخضم من الأحداث والصراعات ابنته مها، فعمله لم يكن يسمح له بقضاء أي وقت معها، بل كان أحيانًا يشعر أنه يتهرّب منها، لا يدري ما السبب.. ربما لأنه كان يتمنى لو كانت ولدًا فيرث كل هذه التركة الضخمة ويعينه في أعماله.. ولكنها في النهاية ابنته ولها حق عليه، خاصة بعد وفاة والدتها وهي في سن صغير وأوكل مهمة تربيتها إلى مربية كان يعرفها ويثق فيها منذ أيامه الأولى في القاهرة، ولكن هل المربية كافية لتحل محل الأب والأم؟، يشعر بالذنب أنه أهملها هكذا.. وكان كلما اشتد عليه هذا الشعور زاد في تدليلها وإغداق المال والهدايا عليها، حتى ذلك الشاب الذي حدثته عنه، لم يهتم بمقابلته حتى الآن ولم يسألها ماذا فعلت معه؟.. أخشى ما يخشاه أن يكون فتًى لعوب من فتيان هذه الأيام، يطمع في الاستيلاء على ثروته بعد أن يتزوجها، ولكنه لن يسمح بهذا أبدًا.. يجب أن يقابل هذا الشاب في أقرب فرصة.

انتبه إلى أنه قضى وقت طويل يتأمل انعكاسه في المرآة، فنفض عن رأسه كل هذه الذكريات والأفكار، وعاد إلى مكتبه ويضغط زر جهاز الاتصال الداخلي الذي يصله بمساعده بالغرفة المجاورة وقال:

– هل أتى يوسف؟

جاءه صوت مساعده وهو يقول:

– نعم يا سيدي وهو في الطريق إليك.

كان يوسف هو رفيقه منذ أن دخلا هذا العالم سويًا، وكان بمثابة اليد التي تنفذ كل أفكاره ومشاريعه بدقة، قد يعجز هو نفسه عنها، لذا كانت ثقته فيه غير محدودة..

– السيد يوسف بالخارج يا سيدي.

جاءه صوت مساعده عبر جهاز الاتصال الداخلي فأجابه قائلا:

– دعه يدخل فورا.

دخل يوسف إلى المكتب وقد بدا أصغر كثيرًا من رشاد، فما زال يوسف محافظًا على سواد شعره نسبيًا مقارنة برشاد، كما أن بنيته بدت أكثر صحة وإن تأثرت كثيرًا بسبب بدانته وقد برز كرشه أمامه، في حين عاجله رشاد قائلًا بلهفة :

– حمدًا لله على سلامتك.. ماذا فعلت؟

– لقد كانت رحلة مرهقة للغاية هذه المرة، فقد سافرت إلى بلجيكا والمجر حيث اتفقت معهم على الصفقة الجديدة، ومنها إلى أقاصي أفريقيا في نيجيريا حيث تعاقدت مع الحكومة ومع الميلشيات هناك على عدة صفقات لتوريد السلاح إليهم، وعدت إلى هنا مباشرة.

– وماذا عن الحدود؟

– كل الأمور تحت السيطرة، ومنّاع يؤمن الطرق جيدًا.

– جيد.. جيد.

قالها وشرد بعقله بعيدًا وهو يفكّر في أمر مها من جديد، حتى أخرجه يوسف من شروده قائلًا:

– رشاد ماذا بك؟.. تبدو مهمومًا.

أجابه بغير انتباه وقال:

– لا شئ.. لا شئ.

ثم أردف قائلًا:

– اسمعني جيدًا يا يوسف، أريد أن تتحرى لي عن شاب وتعرف لى التفاصيل الممكنة عنه.

– أمر بسيط.. أخبرني فقط ما اسمه وخلال يومين بالضبط سيكون عندك تقرير مفصل عنه منذ ولدته أمه.

– اسمه صالح.. صالح إبراهيم الماوردي.

قالها وتألقت عيناه ببريق مخيف، فمثله حين يتحرّى عن شخص ما، فذلك يعني أنه في خطر.. خطر داهم.

* * *

الفصل التاسع

صالح.. مها

انتفضت مها بعنف بعدما سمعت ما قاله لها صالح بعد أن طلب مقابلتها بلا تأخير، بشكل جعل رواد المقهى الذي يجلسان فيه يلتفتون إليهما في تعجب وقالت:

– ماذا تقول؟

شعر صالح بالحرج جرّاء نظرات الناس إليهما مما دفعه لأن يقول بلهجته البدوية التي تسيطر عليه عند الانفعال:

– اخفضي صوتك يا مها وتمالكي أعصابك.

وضعت مها كفها على فمها في محاولة منها للسيطرة على انفعالها قبل أن تقول وهي تتنفس بعمق:

– حسنًا.. حسنًا يا صالح.. احكِ لي بالتفصيل ما حدث؟

– ليس هناك ما يحكى يا مها، أخبرتك أنني قد تركت الواحة ولن أعود إليها أبدًا.

– وماذا ستفعل إذا؟

– سأبحث عن عمل هنا، وسأكون جديرًا بك.

شعرت مها بقلبها يخفق بالفرح والسعادة من كلمات الذي اختارته ليكون رجلها، ونظرت له بحب وقالت:

– أحبك يا صالح.

امتدت كفه لتحتضن كفّها بقوة كأنه يطمئنها وقال:

– وأنا أيضا أحبك يا حبيبتي، وسأفعل المستحيل من أجلك.

– لقد تحدثت مع أبي بشأنك مرة أخرى وسيحدد موعد لمقابلتك في أقرب وقت خلال يومين على الأكثر كما أخبرني.. أنا متفائلة للغاية يا حبيبي.

– إن شاء الله يا حبيبتي.. والآن هيا بنا، فبهذا الشكل سنتأخر على السينما.

التصقت بكتفه بشدة، وهي تطلق ضحكة صافية وقالت بسعادة:

– هيا بنا.

وبمجرد انتهاء الفيلم افترقا على وعد بلقاء قريب، دخلت مها إلى قصر أبيها المنيف وهي تلقي التحية بمرح على كل من يقابلها، حتى وصلت إلى مكتب أبيها فطرقت الباب برقة حتى سمعت صوت أبيها يدعوها للدخول قائلًا:

– تعالي يا مها.

ضحكت برقة وهي تدلف إلى المكتب وقالت:

– كيف عرفتني؟

أجابها ضاحكًا وهو يلتفت نحو يوسف وقال:

– هل هناك من سيطرق الباب بمثل هذه الرقة والنعومة؟

أجابه يوسف ينظر إلى مها مبتسمًا وقال:

– بالطبع لا.

أشارت مها لأبيها إشارة خفية تدعوه فيها للحديث بانفراد فاستأذن من يوسف وتنحى بها جانبًا وقال:

– ماذا هناك يا حبيبتي؟

أجابته بحرج وخجل وقال:

– صالح ترك الواحة وتشاجر مع والده، وقد أتى إلى هنا يبحث عن عمل، وأريدك أن تساعده.. صدقني هو لم يطلب ذلك حتى لا تظن أنه يستغلني، أنا فقط أريد مساعدته.

عقد رشاد ما بين حاجبيها مفكرًا قليلًا، ثم تهللت أساريره وقال:

– وهل أستطيع أن أرفض طلبًا لأميرتي؟.. دعيه يقابلني غدًا في مقر الشركة الساعة الثانية ظهرًا.. وهناك سأتعرّف عليه وأنظر كيف أساعده.

– أنت أروع أب في الوجود.

– وأنتِ أجمل أميرة في الكون.

طبعت قبل رقيقة على وجنته، ثم ذهبت إلى غرفتها، في حين عادت ملامح رشاد للتهجم وقال متوجهًا إلى مكتبه:

– ماذا فعلت في شأن صالح يا يوسف؟

أجابه يوسف بآلية وقال:

– اسمه صالح إبراهيم الماوردي، يسكن في واحة نائية في أطراف الصحراء الغربية على الحدود مع ليبيا، هذه الواحة في مكان

مقفر تمامًا وأشك حتى في معرفة هيئة الخرائط عن وجودها، والده هو الحاج إبراهيم الماوردي.. رجل طيب أقرب للصوفية وهو كبير الواحة ويعتبر حاكمها الشرعي، وصالح هو ابنه الوحيد.

صمت قليلًا وبدا مترددا في طرح ما سيقوله، فقال رشاد بتعجب:

– ماذا هناك؟.. أكمل.

أجابه يوسف بتردد قائلًا:

– الحقيقة أن هناك أقاويل غريبة تدور في الواحة حول عائلة الماوردي.

سأله رشاد بقلق وقال:

– ماذا تعني؟

– يقولون أن لهذه العائلة القدرة على التحكم بالماء.

– التحكم بالماء؟!!

قالها رشاد مستنكرًا، ثم انطلق يقهقه بصوت عال وهو يقول من بين ضحكاته:

– التحكم بالماء؟.. هل مازال هناك من يؤمن بهذه الخرافات؟.. ترى من أين حصلوا على جهاز التحكم عن بعد؟

استمر في الضحك لبعض ثواني قبل أن يشير إلى يوسف بالاستمرار الذي عاد يردف قائلًا:

– قد تبدو لك خرافات بالفعل، ولكن هناك بعض الشواهد التي تؤيد مثل هذه الأقاويل، منها مثلًا أن أحد سكان الواحة قد عصى أمره، فأصاب أرضه العطش ولم تقربها نقطة ماء واحدة في الوقت الذي كانت كل الأراضي من حوله يغمرها الماء.

بدت الجدية على ملامح رشاد، فهو يثق برؤية يوسف للأمور، وكونه أخذ هذه الخرافات على محمل الجد فإن له أسبابه:

– هل تأكدت من صحة هذه الرواية؟

– من أكثر من مصدر.

– حسنًا.. كل شئ سيتبين لي غدًا.

– هناك شئ آخر يجب أن تعرفه.

نظر له رشاد باهتمام متسائلًا:

– هذه الواحة شديدة القرب من النقطة الحدودية التي نستغلها لدخول الأسلحة، وموقعها متميز للغاية، وعلى الأغلب لا تعرف الإدارة المركزية في العاصمة عنها شيئًا، كل هذا يرشحها وبجدارة لأن تكون....

قالها وغمز بعينه لرشاد وهو يبتسم ابتسامة واسعة، الذي فهم مقصده على الفور وقال ببطء:

– لأن تكون مخبأ ممتاز لتخزين السلاح وإعادة توزيعه من جديد.

أشار يوسف بسبابته وقال:

– بالضبط.

واتسعت ابتسامة رشاد بشدة، فهذا يعني أن القدر يقدّم له على طبق من ذهب فرصة عمره، صالح الذي يحب ابنته، وابن حاكم الواحة سيكون طريقه للسيطرة على تلك الواحة ومن عليها، وستتدفق عليه ثروات رهيبة جرّاء هذا.. وهو لن يفوت هذه الفرصة أبدًا.. مهما كلفه الأمر.

الفصل العاشر

إبراهيم الماوردي

بدا الحاج إبراهيم وكأنه قد أضيف إلى عمره عدة سنوات فجأة، وقد ظهرت تجاعيد جديدة على ملامحه، الواحة كلها عرفت بأمر هروب صالح، وباتوا ينظرون إلى كبيرهم بمزيج من الشفقة والقلق.. الشفقة على حاله، والقلق من مستقبل غامض بلا ماوردي جديد يرث سر أجداده ويبث الحياة في أرض الواحة القاحلة، صارت الحياة أكثر كآبة وأقل صخبًا، وازداد الهمز واللمز من بعض شباب القرية حول خرافة بيت الماوردي التي عاشت الواحة أسيرة لها لعقود طويلة، وأنه آن لها أن تنتهي.. ورغم زجر كبار السن لهم إلا أن نفوسهم بدأت تتسائل بشك.. هل الحياة في الواحة قائمة على عائلة الماوردي حقًا؟.. وماذا سيحدث لو مات الحاج إبراهيم الآن؟.. هل سيحل الجفاف ويضطرون لهجر واحتهم أم أن الماوردي كان مجرد أسطورة تم اختلاقها في زمن كانت تكثر فيه الخرافات حول الكرامات والأولياء ثم توارثوها عبر الأجيال دون النظر في صحتها؟، الكل صار يتهامس عند رؤية الحاج إبراهيم حول انحناء ظهره الذي لم يكن معهودًا عليهم من قبل، فرغم تقدم السن بالحاج إلا أنه ظل محتفظًا بقامته منتصبة ممشوقة لا تنحني إلا في الصلاة، لكن كل شئ يتغير الآن.. وياله من تغير.

أنهى الحاج جولته الصباحية المعتادة ثم عاد إلى الدار بخطوات متثاقلة يكاد يجر قدميه جرًا، ثم تهاوى جالسًا عند أول أريكة صادفته بينما هرعت إليه هند وعلى وجهها آثار دموع لم تجف تمامًا بعد إثر بكاء متواصل منذ رحيل صالح، تحاول أن تكتمه فقط في وجود الحاج، نظرت له مشفقة وقالت بصوت باكٍ:

- ألن تفعل شيئًا يا حاج؟

أجابها بنظراته الصامتة ثم قال بصوت متحشرج:

- عم تتحدثين؟

طفرت الدموع من عينيها بعد أن فشلت في كبحها وقالت باكية:

- لاستعادة ولدنا الوحيد.

صرخ الحاج في وجهها بغضب:

- لم يعد لدينا أولاد يا هند، كان لدينا ولد ومات.

- لا تقل هذا يا حاج.. أرجوك.

- كفى يا هند.. فولدك تركنا ونحن في أمسّ الحاجة إليه من أجل فتاة مجهولة النسب، وستكون وبالًا عليه يومًا ما.

أمسكت كفه تقبّلها وهي تقول بضراعة:

- أرجوك يا إبراهيم.. لا تجعل غضبك يسبق حكمتك التي عرفتها عنك، ابنك أخطأ وعليك أن توجهه وتعيده لرشده، لا أن تتركه للغرباء.

أحاط كتفيه وضمها إليه بحنان وقال:

- حسنًا يا هند.. سأفعل.

قالها وقلبه ينزف ألمًا على ابنه الذي خذله، وجعله عرضة للألسنة بعد أن كانت عائلة الماوردي أقرب ما تكون لشئ مقدس، لا يجوز التحدث عنه إلا بالتبجيل والاحترام، قلبه يعتصره الألم من فراق ابنه الوحيد الذي لم يراعِ عادات أهله وتقاليدهم، بل لم يراعِ قلب أمه الملهوف عليه ويحترق قلقًا حول مصيره المجهول، مضى نحو خلوته يلتمس فيها الأمان والراحة، وأمسك بمسبحة جده وراح يردد اسم الله اللطيف آلاف المرات، حتى تناهى إلى مسامعه صوت خطوات أخيه عاصم وهو يدلف إلى المنزل في وجوم، فناداه قائلًا وهو يشير إلى المكان الخالي بجواره على الأريكة:

– تعال يا عاصم، أريدك في أمر هام.

اقترب منه عاصم وجلس بجواره وقد اكتست ملامحه بالحزن على حال أخيه وابن أخيه وقال:

– نعم يا حاج.

نظر الحاج إلى وجهه بعنين التمعت فيهما دموع حبيسة وقال بصوت مختنق:

– أنت تعرف أنني لم أخرج من الواحة منذ مولدي، بينما أنت ذهبت إلى العاصمة عدة مرات وتلقيت بعض التعليم في مدارسها، لذا فأنت أدرى مني بها، أريدك أن تذهب إلى هناك وتتحسس أخبار صالح لعلك تأتينا بما يصبرنا ويريح بالنا.

ربّت عاصم على كتفه وهو يحاول الابتسام لتشجيع أخيه الأكبر ثم قبّل يده وقال:

– أمرك يا حاج.. كل ما يرضيك سأفعله بلا تردد.

قبّل الحاج إبراهيم رأسه وقال:

– بارك الله لي فيك يا أخي.

ثم أردف قائلًا وهو ينظر إلى سقف الحجرة برجاء:

– ويعيد إلينا صالح سالمًا.

– إن شاء الله يا حاج.. إن شاء الله.

قالها عاصم وتركه متوجهًا إلى غرفته، بينما أقبلت هند تحمل كوبًا من الشاي ناولته بحرص لزوجها الذي بدا شاردًا، حتى أنها احتاجت لأن تناديه عدة مرات حتى ينتبه لوجودها، فقالت في حيرة:

– ماذا هناك يا حاج؟.. يبدو أن هناك أمر آخر يشغلك غير صالح.

أجابها دون أن يلتفت إليها وقال:

– لا شيء يا هند.

ضمّت هند رأسه إليها وأراحتها على صدرها في حنان وهي تضمه بأقصى ما تستطيع من قوة، في حين استسلم الحاج لها تمامًا، وبدا مسترخيًا في أحضانها كطفل وديع في أحضان أمه تهدهده، ثم قالت هند برفق:

– ألقِ همومك في أحضاني كما تعوّدت دومًا يا حبيبي، أخبرني ما الذي يشغلك؟.. شاركني فيما تحمله كتفاك من مصاعب.

وكأن لأحضانها فعل السحر عليه، فانحلّت عقدة لسانه كأنه تحت تأثير التنويم المغناطيسي وقال:

– أنا قلق بشأن السر يا هند.

انتبهت هند فور سماعها جملته، ثم حاولت تمالك أعصابها وقال:

– ماذا به يا حاج؟

– كان من المفترض أن يرث صالح السر ويصبح هو الماوردي حين يكون مهيئًا لذلك، ولكنه الآن هارب.. وحتى لو لم يهرب، فهو لا يستطيع تحمّل مسئوليته هو، فما بالك بمسئولية الواحة وسر الماوردي؟

فكّرت هند للحظات قبل أن تقول:

– وماذا عن عاصم؟.. لماذا لا يرث هو السر؟.. فعاصم ما زال شابًا.. كما أنه ما شاء الله عاقل ورزين، ويستطيع أن يحمل مثل هذه الأمانة.

أجابها في حيرة قائلًا:

– أنتِ محقة.. ولكن الأمور لا تسير بمثل هذه البساطة والعشوائية، فالأمر يحتاج لصفات خاصة وتأهيل معين، ثم بعدها تأتى البشارة باسم الماوردي الجديد.

– لا حول ولا قوة إلا بالله.. وماذا ستفعل إذًا؟

هز الحاج رأسه في حيرة وهو يقول:

– لا أعلم يا هند.. حقًا لا أعلم.. فهذه هى المرة الأولى التي تتعرض فيها عائلة الماوردي لمثل هذا الموقف منذ أن بدأها جدنا

قالت هند في ثقة ممزوج بالحزم:

– إذن دع الأمر لله، هو وحده علام الغيوب.. ووحده بيده أن يقدّر علينا تصاريفه وتدابيره.

– ونعم بالله.. ونعم بالله.

قالها تاركًا جسده يسترخي أكثر ويستسلم للنوم في حجرها وكأنه ألقى عن كاهله همّ ثقيل، ولكن عقله كان يفكّر في أمر ما، أمر لم يخطر له أو لأحد قبله على بال، ولكنه فقط ينتظر البشارة.. بشارة الماوردي.. الجديد....

* * *

الفصل الحادي عشر

المقابلة

وقف صالح بصلابة كوتر قوس مشدود لمنتهاه أمام رشاد السيوطي الذي استرخى على مقعد مكتبه الوثير يدخن سيجاره الفاخر بتلذذ وينفث دخانه بعمق، بينما عيناه تتطلعان في ملامح صالح الوسيمة ونظراته المتحدية له رغم صغر سنه، فكأنه يقول له لم آتِ إلى هنا أستجدي منك عملا أو طامعًا فيما تملك، كل ما أريده أن تزوجني ابنتك فحسب، لا ينكر أنه أثار إعجابه ولكن هذا لا يكفى، يجب أن يسبر أغواره أولًا، فقال بود مصطنع فطن إليه صالح بسهولة:

– مرحبًا يا صالح.. اسمك صالح.. أليس كذلك؟

أجابه صالح بصوت واضح النبرات مشوب بالتحدي وقال:

– مرحبًا.. بلى اسمي صالح.. صالح الماوردي.

– اجلس يا صالح.. لماذا تقف هكذا؟

جلس صالح بحذر، في حين قام رشاد من خلف مكتبه ودار حوله نصف دوره وهو يربّت على كتف صالح ويقول:

– مها حدّثتني عنك كثيرًا.

بدأ التوتر يدب في أعصاب صالح، ولم تخطئ عين رشاد الخبيرة عن التقاطه فابتسم لثانية قبل أن يكمل قائلًا:

– ولكني أحب أن أسمع من الناس، لا عنهم.

واقترب منه حتى لم يبقَ بين وجهيهما سوى بضع سنتيمترات وقال:

– فهناك تفاصيل لا تظهر إلا حين يتكلم عنها أصحابها أنفسهم.

تأمل صالح عينيه العميقتين وشعر أنه يغوص فيهما، فازدرد لعابه بصوت مسموع وقال:

– أنا من عائلة الماوردي، وهي أكبر العائلات على الإطلاق في واحتنا حيث كنت أعيش، ولكني تركت الواحة وجئت إلى هنا كي.. كي..

ابتسم رشاد ابتسامة واسعة وأكمل قائلًا:

– كي تعمل.. وتنجح.. وتتزوج مها.. أليس كذلك؟

رفع صالح رأسه إليه يتأمل قامته الطويلة وهو يجيب بإيجاز:

– بلى.

– صالح.. هل تعي حقًا مع مَن تتحدث؟

لاذ صالح بالصمت تمامًا مما دفع رشاد لأن يكمل قائلًا:

– أنت تتصور أنني رجل أعمال.. بالغ الثراء.. وأنني ربما ورثت معظم ثروتي عن أبي، وأننا عائلة عريقة مثل عائلتك، ربما لذلك فضّلت تعريف نفسك وعائلتك والتركيز على مدى عراقتهم كي ترسل لي من بين السطور رسالة مفادها أنك لست أقل مني عراقة حتى لو كنت أقل مني مالًا.

بدا القلق جليّا في عيني صالح، وقد شعر أنه أمام جهاز لكشف الكذب وقراءة الملامح آدمي، في حين أردف رشاد قائلًا وهو يتمشى في المكتب دون أن ينظر لصالح:

– ولكن هذا كله غير صحيح.

انتفض صالح انتفاضة خفيفة فور سماعه هذه الجملة، بينما يكمل رشاد قائلًا:

– أنا من أسرة متواضعة للغاية، أو قل وضيعة للغاية، وقد هربت من البيت في مثل سنك هذا بالضبط وجئت إلى هنا لأحقق ما تريد أنت أيضًا تحقيقه، ولكن الطريق ليس مفروشًا بالورود، بل ستجد في كل خطوة خنجر مستعد للإجهاز على حياتك، وفوق كل مرتفع قناص يصوّب إلى رأسك بندقيته، فهل أنت مستعد لتعيش مثل هذه الحياة؟

هز صالح رأسه بإيجاب وهو يقول بسرعة:

– نعم.

لكمه رشاد لكمة خفيفة في كتفه وهو يصيح بانتصار:

– رائع.. كنت أعلم.

اكتست نبرات صوته بحنان مفاجئ وهو يقول:

– هل تعلم يا صالح؟.. لقد كنت أتمنى دومًا أن يرزقني الله بولد حتى يرث عني كل هذه الثروة والأعمال، ولكن الله رزقني بمها ففرحت بها للغاية، ولكنها ظلّت دائمًا فرحة منقوصة، فرحة مخلوطة بالقلق.. فماذا ستفعل هذه العصفور الرقيق وسط الوحوش؟.. أعلم أنني ابتعدت عنها طويلًا ولم أهتم بالرعاية بها بشكل كافي، وسخّرت

كل وقتي ومجهودي للشركات والأعمال، ولكن هذا لا يعني أني سأهبها لأول عابر سبيل.

صمت قليلًا ثم تابع قائلًا بحزم:

– إذا أردت أن تتزوج مها، فيجب أن تثبت لي جدارتك بها.

ضاقت عينا صالح وهو يقطب ما بين حاجبيه بتركيز ويقول:

– وكيف هذا؟

– ستعلم كل شئ في حينه، أما الآن فكل ما عليك معرفته أنك ستعمل معي.. في كافة أعمالي.

– أنا مستعد لأي شئ.

– الدرس الأول يا صالح.. لا توافق على شئ لا تعرف كافة أبعاده.

– حسنًا.

– أنا أعمل في مجال المقاولات والتسويق العقاري والقرى السياحية.. ولكن هذا ليس كل شئ.

التقت نظراتهما ورشاد ينفث دخان سيجاره الذي لم يتركه منذ بدأ حوارهما وقال ببطء ضاغطًا حروف كلماته:

– أنا أعمل أيضًا في التهريب.

انتفض جسد صالح بعنف هذه المرة، وقام واقفًا ولكن قبضة رشاد الحديدية أمسكت بذراعه بقوة وأعاده إلى مقعده بقوة وهو يقول بصوت بارد كالثلج:

– اجلس، لم أنتهِ من حديثي بعد.

جلس صالح مستكينًا، في حين سحب رشاد نفسًا عميقًا من سيجاره وقال:

– أنا لا شأن لي بما يتم تهريبه، إذا أردت تهريب فرشاة أسنان من وإلى مصر سأفعل، وإذا أردت تهريب طائرة أيضًا سأفعل.. ربما تنظر إلى عملي كعمل غير مشروع، وأنني شخص خارج عن القانون.. ولكن إذا فكّرت في الأمر تجد أن هذه الحدود هي موانع وهمية لتقييد حركة البشر والبضائع، أقفاص كبيرة يتم حبس البشر الدواجن فيها، أما الأحرار بحق فينفذون عبر ثغرات هذه الأقفاص.

تأمل قليلًا ملامح صالح المتوترة وأكمل قائلًا:

– والآن يمكنك أن تجيب.. هل تستطيع أن تعيش حياة مثل هذه؟

أخذ صالح شهيقًا عميقًا ليسيطر على أعصابه وقال:

– لقد سمعتك للنهاية يا سيدي، ويخيل إليّ أنه قد آن الأوان لأن أتحدث، لقد تركت واحتي حيث نشأت، وتركت إرثًا طويلًا من تقديس عائلتي التي يؤمن أهالي الواحة أنها هي المسئولة عن الحياة في واحتنا، ومدّها بالماء وأسباب الحياة، وقطعت كل ما له علاقة بالماوردي اسمه وصفته، واليوم أنا ولدت من جديد.. وأعدك أن أكون عند حسن ظنك.

ابتسم رشاد بارتياح وقال:

– لم تخيب ظني فيك يا صالح، ولنا مجلس آخر لتحكي لي عن واحتك وحياتك الأولى، أما الآن فاسترح لتستعد للقادم.

قالها وعقله يرسم خطة شيطانية للاستيلاء على الواحة، بل ويجعلها ستارًا لعملياته الغير المشروعة، خطة سيكون صالح أحد أهم

أضلاعها، والذي انسلخ من عباءة ماضيه ليرمي بنفسه في أحضانه، وكان هذا أروع من أجمل أحلامه.. وتعالت بالداخل ضحكات انتصار مجلجلة.. ومخيفة.

* * *

الفصل الثاني عشر

العاصمة

سعل عاصم بشدة بمجرد هبوطه من الحافلة في أحد الميادين الكبرى بالعاصمة، فلم تعتد رئتاه بعد هذا الكم الهائل من الدخان وعوادم السيارات، دائمًا ما تثير فيه العاصمة شعورًا حادًا بالكآبة، اللون الرمادي يطغى على كل شئ، الألوان كلها باهتة كئيبة تبعث الحزن في النفوس، بينما تعالت يافطات إعلانية حديدية تشعره بأنه قزم في قرية للعمالقة يوشكون على سحقه بأقدامهم، يتابع في دهشة حركة الناس السريعة وهم يركضون للحاق بالمترو أو بحافلة توصلهم إلى وجهتهم وكأنهم يفرون من شئ مجهول يكاد يفتك بهم، القلق ينهش ملامحهم فتبدو وجوههم سمراء كاحلة، الزحام يحكم قبضته على شوارع العاصمة فيصيبها الاختناق وتكاد تلفظ عابريها مشاتهم وسائقيهم حتى تخفف ضغط الزحام عليها.. بدا عاصم بحركته البطيئة نسبيًا وملابسه البدوية عنصرًا دخيلا على هذه اللوحة السيريالة، ولكن الأعجب من مظهره أن أحدًا لم يلتفت إليه حتى لو بنظرة عابرة.. لا وقت لدى أحدهم للدهشة.. الكل يسعي.. والكل ترس صغير في آلة العاصمة الكبرى.

أخرج عاصم هاتفه الخلوي الذي لم يكن يستخدمه سوى للاتصال بصالح، فوحدهما أصابهما سهم التحضر بقدر ضئيل

واستطاعا مواكبة تطور الاتصالات خارج الواحة، في حين بقى أهالي الواحة في عزلتهم الاختيارية أو الجبرية عن العالم الخارجي، طلب عاصم الرقم الوحيد واستمع إلى الرنين الرتيب حتى نهايته، ولكن بلا مجيب.. على أن هذا لم يثر اليأس في نفسه، فكرر المحاولة عدة مرات حتى سمع صوت صالح البارد يأتي من الطرف الآخر قائلًا:

– نعم يا عمي.

أجابه عاصم بلهفة متجاهلًا الفتور الذي انتاب صوت صالح وقال:

– أين أنت يا صالح؟.. وكيف حالك؟

أجاب صالح باقتضاب:

– أنا بخير.

– أين أنت الآن؟.. أريد أن أقابلك.

– أنا مشغول للغاية لن أستطيع مقابلتك.

تملّك الغضب من عاصم وقال في انفعال:

– لا تكن أنانيًا وجاحدًا إلى هذه الدرجة.. نحن لا نستجدي منك شيئًا.. كل ما في الأمر أن والديك يريدان الاطمئنان عليك، لا تدع القسوة تتملك من قلبك لهذه الدرجة.

رقّ قلب صالح قليلًا أمام غضبة عمه خاصة وقد تذكّر والديه الذين رغم غضبه منهما ثورته عليهما، لا يستطيع أن ينسى حنانهما ورعايتهما له، فأجاب قائلًا:

– حسنًا يا عمي.. أين أنت الآن؟

– أنا بالقرب من محطة القطار، سأنتظرك في أحد المقاهي المنتشرة هناك.

– سأوافيك بعد ساعة على الأكثر.

أجاب عاصم في حزم قائلًا:

– سأنتظرك.

خيّم الصمت للحظات دون أن ينهي أحدهما المكالمة وكأن كليهما يعلمان أن ثمّة كلمات لم تُقل بعد، حتى قطعه صالح قائلًا:

– كيف حالهما؟

اكتسى صوت عاصم بالحزن وهو يقول:

– يكاد يصيبهما الجنون قلقًا عليك.

– سآتي حالًا.

أنهى عاصم المكالمة وتوجه نحو أحد المقاهي المتناثرة حول محطة القطار، يتأمل الباعة الجائلين من كل صنف، وكلٌّ ينادي على بضاعته المزجاة والتي يبيعها بأبخس الأثمان، بينما تزاحم الناس حول المطاعم ليتخطفوا بعض اللقيمات تسد جوعهم وتجعلهم قادرين على الاستمرار في ركضهم المحموم لاكتساب أرزاقهم، ولم تكد تمر الساعة حتى لمح صالح يبحث عنه في المقاهي فأشار إليه حتى رآه..

– مرحبًا يا عمي.

قالها صالح بوجه عابس، فتأمله عاصم قليلا قبل أن يقول:

– أهلا يا صالح.. اجلس.

جلس صالح بجواره وقد لاذ بالصمت في حين أقبل النادل نحوهما وقال متوددًا:

– ماذا يشرب شيوخ العرب؟

أجابه عاصم قائلا:

– كوبين من الشاي أحدهما بلا سكر.

– على رأسي.. شرفتم المكان.

ثم مضى يعيد الطلب بصوت عالي حتى يسمعه العامل بالداخل ليحضر طلبهما، في حين التفت عاصم نحو ابن اخيه وقال:

– وما نهاية كل هذا يا صالح؟.. والديك يكادان يهلكان بسببك.

أطرق صالح برأسه قبل أن يقول:

– لا أحد فيكم يفهمني.. تريدونني أن أقضي عمري مثل أبي وجدي.. أن أصبح الماوردي وأعيش حياة بلا طموح وأتزوج من ترضون أنتم عنها لا من اختارها قلبي، أن أعيش في واحة معزولة عن العالم، منسية في غياهب الصحراء.. أهذا ما تريدون؟.. لم تسألوا أنفسكم ماذا أريد أنا؟

شعر عاصم نحوه ببعض التعاطف وقال بصوت حانٍ:

– إنه قدرك يا ولدي، ولا أحد يستطيع تغيير قدره.

انتفض صالح صائحًا وقال في انفعال:

– قدري لم يكتب بعد، قدري أنا من سيصنعه، لا أن أستسلم لعادات وتقاليد توارثناها جيلًا بعد جيل، ولا أن أدور في فلك أسطورة حول رجل مجهول اسمه الماوردي.

نبهه عاصم بصوت غاضب قائلًا:

– تأدب يا ولد.. وكفّ عن الخوض في سيرة جدّك، لقد قامت هذه الواحة على بركته وكراماته.. وستظل باقية ببركته وكراماته.

– عن أي كرامات تتحدث يا عمي؟، كيف لك أنت المتعلم أن تتحدث مثل هؤلاء البسطاء؟.. أنت تعلم أن لكل شئ تفسير، وأكبر دليل على ذلك هو الكتاب الذي نتوارثه، هو الذي يحمل السر بين طياته، وربما إذا قرأه أي أحد يستطيع اكتساب تلك القدرة، مَن أدراك أنها كرامات حتى؟.. لماذا لا تكون سحرًا وطقوسًا؟.. هل تعلم أنت أي شئ؟.. أنت ذاتك وأنت أخو الماوردي وحفيد الماوردي الكبير.. هل لك من الأمر شئ؟

شعر عاصم بغصة مريرة في حلقه أمام هجوم ابن أخيه، والذي بدا محقًا نوعًا ما، ولكن يأبي أن يعترف بذلك، فقال بعد عدة لحظات من الصمت:

– ربما كنت على حق في بعض ما تقول، ولكن هل هروبك هو الحل؟.. هل التمرد على عائلتك وثوابت بيئتك حتى وإن كانوا على خطأ كما تقول سيجعل منك انسانًا أفضل؟.. هل ستجد هنا الحب الذي منحناه إياك دون قيد أو شرط؟.. انظر حولك.. انظر إلى هؤلاء الناس الذين يركضون ليل نهار في سعي دائم خلف أرزاقهم، تأمل ذلك القلق الذي يكسوا ملامحهم والتوتر البادي في نظراتهم الزائغة، هل يبدون لك كأناس ناجحين يعيشون في نعيم؟

– وأنت هل نظرت إلى أهل واحتنا المستكينون المستسلمون الذين لا تكاد تفرّق بين معيشتهم ومعيشة أبقارهم؟ ليست العبرة بالمكان أو الناس يا عماه.. المهم هو أن يحاول الإنسان التحرر من قيوده، ويسعى لتحقيق ما يحلم به.

للمرة الثانية يشعر عاصم أن ابن أخيه رغم حداثة سنه قد أفحمه وألزمه الحجة، ولكنه بدلًا من أن يكمل معه الحوار حول جدال لن يثمر شيئًا آثر أن يحاول إعادته مرة أخرى إلى الواحة فقال:

– حسنًا دعنا من كل هذا الآن.. دعنا نعد إلى الواحة وأنا أعدك أن نناقش كل هذه الأمور ولن يجبرك أحد على شئ أبدًا.

– آسف يا عمي.. لن أعود معك.

صاح عاصم مستنكرًا وقال:

– كل هذا من أجل فتاة؟

أجابه صالح بتحدٍ وقال:

– مها جزء من المشكلة ولكنها ليست المشكلة يا عمي وأنت تعلم هذا جيدًا، كما أنني قابلت والدها وحصلت على عمل معه، وبمجرد أن أثبت جدارتي بها سنتزوج.

– ستتزوج فتاة لا تعرف عنها سوى أنكما التقيتما في أحد المقاهي عدة مرات؟

– كفى سخرية مني ومن مشاعري يا عمي.. سأتزوج مها مهما حدث، ولن تمنعني قوة على الأرض من ذلك.

بدا صالح عنيدًا كصخرة صمّاء لن تلين، فلم يجد عاصم بدًا من مجاراته حتى لا يقطع الشعرة الواهية التي تربط بينهما فقال في هدوء:

– حسنًا يا صالح، لقد صرت رجلًا على أية حال ويمكنك اتخاذ قراراتك الخاصة بنفسك، ولكن تذكّر دائما يا ولدي أن النبتة التي لا جذور لها تحركها رياح الأهواء في كل مكان ولن تجد لها قرار أبدًا.. تذكر هذا يا ولدي لعله يكون سبيلك للرجوع يومًا.

قال صالح بارتياح وتأثر:

– أعدك يا عمي.

احتضنه عاصم بقوة وكأنه يفرغ فيه كل طاقة الحب التي يحملها له، وبالمثل فعل صالح.. فرغم كل شئ كان عمه هو الأقرب إلى فهمه.. وما كان يحزم أمرًا من قبل إلا بمشورته، ولكنه في هذا الموقف لا مفر من أن يختلفا، فأحدهما يفكر بعقلية الواحة والآخر لا يرى سوى بهرجة العاصمة وزخارفها المبهرة، أحدهما لا يستطيع أن يقطع جذوره التي تربطه بأرضه وذكرياته وأجداده، والآخر يرى أن يجب أن يغرس نفسه في أرض جديدة أكثر خصوبة من أرض واحته المجدبة، لعله يزدهر ويثمر، لم يكن وداعهما فراقًا بين شخصين فحسب، بل كان فراقًا لعالمين مختلفين، لكل منهما أفكاره وقيمه التي يتبنها.. جمعهما الدم والقرابة وفرقهما السن ووجهات النظر بين جيلين وعالمين.. ولكن السؤال الذي تردد في عقل عاصم في تلك اللحظة.. هل سيستطيع الدم والقرابة أن تعيد صالح لجذوره؟.. أم تلتهمه العاصمة بزخرفها ومفاتنها الكاذبة؟.. هل صالح جاحد متمرد متنكر لأهله وعاداته؟.. أم أنه شاب يسعى للتغيير ولإثبات قدراته المتفوقة في أرض جديدة بدلا من أرضه التي تخنق روحه؟.. على أن هذه الأسئلة وغيرها ظل يتردد في عقل عاصم بلا إجابة.. على الإطلاق.

* * *

الفصل الثالث عشر

الرؤيا

وقفت هند عند البئر وقد بدت أصغر من سنها بكثير، وتجمع حولها أهل الواحة في دائرة واسعة يشاهدونها وهي تغترف من البئر وتنثر ماءه في الهواء، فتتساقط قطراته على أرض الواحة العطشى، وفي كل مكان كانت تسقط فيه قطرة تنبت مكانها شجرة وارفة الأغصان مثقلة بالثمار، فيهلل الناس فرحًا.. في حين أنشدت هند بصوت عذب ملائكي شعرًا تقول فيه:

يا هند لم يخطيء أبوك ... الحزم حين دعاك هندا
سماك باسم كاد يدركه ... الـتـقـادم فاستجدا
دعيت بنات العرب من ... قدم به ومجدن مجدا
ما الهند إلا روضة كا ... نت لأرقى الخلق مهدا

– استيقظ يا حاج.. المؤذن يؤذن لصلاة الفجر.

انتبه الحاج إبراهيم إلى صوت هند الذي يوقظه لصلاة الفجر التي تعالى صوت أذانه بالخارج منطلقًا من مسجد القرية، فاعتدل الحاج جالسًا وهو يتمتم بحمد الله بصوت خافت ويمسح وجهه بكفيه ليزيل عنه آثار النوم، نظر لهند الذي تتابع ترتيب الحجرة مبتسمًا وقال:

– هند.

التفتت له هند وتركت ما يشغل يديها وقالت باهتمام وقد ظنّت أنه سيطلب منها حاجة تقضيها له:

– نعم يا حاج.

أجابها الحاج بمزيج عجيب من الفرح والأسى لا يجتمعان بنفس الإنسان إلا فيما ندر وقال:

– لقد جاءت البشارة.

كتمت هند فمها بكفها لتمنع صرخة كادت تفلت منها وهي تقول:

– البشارة؟.. بشارة بمن؟

نهض الحاج إبراهيم متوجهًا إلى حيث يتوضأ وقال:

– بالماوردي الجديد.

قالها وتركها تضرب أخماسًا في أسداس، وتتسائل في حيرة حول هوية الماوردي الجديد، في حين انطلق هو ليلحق بصلاة الفجر ويتابع روتينه اليومي، إلا أنها عند الظهيرة استطاعت أن تتجاذب معه أطراف الحديث فقالت محاولة التظاهر بعدم الاكتراث:

– لم تخبرني عن البشارة حتى الآن يا حاج.

ابتسم لمراوغتها وقال:

– يقولون في المثل «لو صبر القاتل على المقتول لكان مات وحده»، كنت على وشك إخبارك الآن.

جلست هند بجواره بلهفة وقالت:

– كلي آذان صاغية.

اكتست ملامح الحاج إبراهيم بالجدية وقال:

– اسمعيني جيدًا.. منذ أن بدأت مشكلة صالح وأنا أفكر في هذا الأمر، ولم يغب عن خاطري لحظة واحدة، وظللت أسأل نفسي.. من سيكون الماوردي في حال أنني مت؟

قاطعته هند قائلة:

– أطال الله عمرك وحفظك لنا يا حاج.

تجاهل مقاطعتها وأردف قائلًا كأنه لم يسمعها:

– كان أول اسم توارد إلى عقلي هو أخي عاصم، فهو عاقل رزين.. كما أنه من نسل الماوردي مثلي تمامًا.. ولكني كما قلت لك أن الأمور لا تسير بمثل هذه العشوائية، فعاصم قلبه معلّق بحب رحمة حتى الآن رغم وفاتها رحمها الله بينما على الماوردي ألا ينشغل بشئ سوى بخدمة الناس ورعاية الواحة، ولا ينطبق في الوقت الحالي هذه المواصفات سوى على شخص واحد.

تسائلت هند بحيرة وقالت:

– ومن هو هذا الشخص؟

صمت الحاج للحظات قبل أن يرفع رأسه ناحيتها ويقول في حزم:

– أنتِ.

سرت قشعريرة باردة في جسد هند وانتفض انتفاضة خفيفة فور سماعها الخبر، فلم يسبق على حد علمها في أي يوم منذ تأسيس الواحة أن كان الماوردي امرأة، ثم كيف تكون هي الماوردي؟.. هذا أمر أقرب للجنون، أجابته قائلة في ذهول:

– أنا؟.. كيف؟.. الماوردي؟

انطلقت الكلمات من لسان الحاج إبراهيم بسرعة كأنه يريد أن يقضي على حيرتها وترددها قبل أن يتفاقما وقال:

– نعم أنتِ يا هند، أنتِ الأنسب لتكوني الماوردي الجديد، أعلم أنها مسئولية جسيمة، وأنها لم تخطر لك على بال، ولكنه الحل الوحيد.. ستكونين أنتِ الماوردي، فإذا عاد صالح لرشده كان خيرًا وبركة وعادت الأمور لطبيعتها.

صمت قليلًا ثم قال في حزن:

– أما إذا لم يعد لصوابه، سيكون عليك اختيار الماوردي الجديد، وتأكدي أن الله لن يخيب رجاءك وسيهديك إلى الصواب، فما نحن إلا أدوات بين يديه يصرّف بها أمور خلقه.. نحن لا نرزق الناس ولكن الله جعلنا سببًا في أرزاقهم.

– ولكن كيف؟

– أمس جاءتني البشارة بك، رأيتك تغترفين من ماء البئر وتنثرين قطراته في أرض الواحة فتنبت أشجارًا ورافة الظلال كثيرة الثمار، والناس من حولك يهللون فرحين بما تفعلينه.

هزّت هند رأسها نفيًا وقالت:

– لست أسأل عن هذا.. ولكنك تعرف عاداتنا وتقاليدنا، لن أستطيع الخروج والدخول مثلك أو مثل عاصم، كما أن خبر مثل أن يكون الماوردي امرأة لو انتشر بين أهالي الواحة، ربما فقد لقب الماوردي هيبته و احترامهم له.

– لذلك لن يعرف أحد بهذا الأمر غيرنا.. أنا وأنتِ فقط، حتى عاصم لن يعرف شيئًا.

– هل سنستطيع إخفاء أمر كهذا؟

أجابها الحاج بنظرات زائغة لا تستقر على شئ وقال:

– نعم.. إذا.. إذا..

حثته هند على المتابعة قائلة:

– إذا ماذا يا إبراهيم؟

عبث الحاج إبراهيم بعود رفيع من الخشب في الأرض وقال دون أن ينظر لزوجته وقال:

– إذا أعلنا وفاتك.

ارتاعت هند من هول الفكرة، وقد بدا لها فألًا سيئًا لا يستطيع أحد احتماله، لم تدرِ ماذا تقول أو بم تجيب زوجها، هل تطيعه وتقبل قدرها بأن تحيا كشبح؟.. أم تلومه أنه فكّر في مثل هذه الفكرة؟.. أم ترفض أن تكون الماوردي ولتذهب الواحة إلى الجحيم؟.. ولكن هل يهرب الإنسان من قدره؟.. لقد كُتب عليها أن تكون الماوردي، ولا مفر من ذلك.. ثم بفرض أنها قبلت بذلك، كيف سيقنعون أهالي القرية بوفاتها والكل يعلم مكانها، ونساء القرية لا يترددن في الدخول عليها في أي وقت من أوقات النهار؟..

احترم الحاج إبراهيم صمتها وتركها تلوك الفكرة في عقلها، وقلبه يُعتصر من جرّاء نظراتها اللائمة له، وأخيرًا قالت بأسى والدموع تتحس الطريق إلى وجنتيها:

– هل طاوعك قلبك أن تقول شيئًا كهذا يا حاج؟.. أبعد كل هذا العمر من معاشرتك وخدمتك، يخطر ببالك أن تعلن وفاتي وتحكم عليّ أن أعيش حية وميتة في ذات الوقت؟.. أهانت عليك هند لهذه الدرجة يا إبراهيم؟

احتضن الحاج كفها بكفه الغليظة في حنان، وقبّل رأسها برفق وقال:

– أنا آسف يا هند، صدقيني لم أجد حلًا آخر، ولكن إذا رفضت ولك كل الحق في هذا فلن ألومك وستظلين أبدًا زوجتي وحبيبتي وأم ولدي.

انهمرت دموعها بغزارة وعلا صوت بكائها حتى كاد الحاج إبراهيم يلعن نفسه واليوم الذي فكّر فيه مثل هذه الفكرة، إلا أنها سرعان ما تمالكت نفسها وجففت دموعها وقالت بحزم:

– أنا موافقة يا حاج.

– ولكن يا هند....

– لا يوجد لكن يا إبراهيم.. هذا قدرنا ويجب أن نتقبله بالتسليم، ثم إنك لن تهملني وسترعى شئوني كما كنت دومًا خير زوج ونعم الحبيب، ومصلحة واحتنا واسم الماوردي أهم من أي شئ.

احتضنها الحاج بحب وحنان جارفين وهو يقول:

– بارك الله فيك يا حبيبتي.

بينما انطلق عقله يعمل بأقصى طاقته ليدبّر تفاصيل وفاتها في سرية تامة، فأمامهما ليلة طويلة يعدّان فيها أمرهما، حتى يصبح الصباح

فيشيع الخبر بين الناس دون إثارة للتساؤلات، خاصة وأن عاصم ما زال في القاهرة وربما سيصل في الغد في أي وقت، ورغم بساطتها فقد بدت خطته عبقرية.. عبقرية إلى أقصى حد.

* * *

الفصل الرابع عشر

وفاة مفاجئة

غاب القمر في تلك الليلة، وألقى الظلام بسواده على الموجودات، وقد بدت الواحة قفرٌ لا يُسمع بها صوت، فحتى الهوام امتنعت عن إصدار أصواتها وكأنها تراقب ما يحدث في بيت الماوردي، في حين انهمك الحاج إبراهيم وزوجته في حشو الكفن بقطن والقش في هيئة آدمية وقد زوداه بالأثقال هنا وهناك حتى يقارب وزن هند تقريبًا، ثم تعاونا سويًا لوضع هذه الدمية في تابوت الموتى استعدادًا لدفنه في مقابر الواحة، وما أن أتما عملهما حتى التقطا أنفاسهما للحظات وهما يتبادلان نظرات تحمل مزيج من الحب والمودة، ثم ربّت الحاج على يد زوجته واقتادها عبر حجرة الخلوة إلى أسفل المقام حيث البئر الذي تراه لأول مرة في حياتها، فنظرت له في افتتان وقالت:

– سبحان الله.

ابتسم الحاج إبراهيم وقال:

– ستعتادين رؤيته منذ هذه اللحظة، وسأمر عليك كل صباح لأحضر لك ما يلزمك، وأعلّمك ما يجب عليك فعله.

نظرت له بود وقالت:

– إن شاء الله يا حاج.. كل شيء سيكون على ما يرام.

أجابها الحاج وهو يستعد للرحيل:

– بإذن الله.. والآن سأتركك لإعلان الخبر بعد صلاة الفجر.

– كان الله في عونك يا حاج.

ترك يدها بصعوبة وهو يحاول منع يده من الارتجاف بلا جدوى، وخرج ليصلي الفجر في المسجد ليعلن الخبر الأثقل على قلبه على الإطلاق، بينما تلح على عقله صورة خيالية لنبي الله إبراهيم وهو يترك زوجته هاجر وابنه إسماعيل عند بيت الله الحرام حيث لا زرع ولا ماء في صحراء جرداء، ولكنه مع الفارق يترك زوجته على بعد أمتار منه حيث يتوفر الماء والطعام بسهولة، ومع ذلك بدا الفراق قاسيًا.. ردد الصلاة الإبراهيمية بخفوت عدة مرات، لعله يستلهم صبر نبي الله إبراهيم حين ترك زوجته، ورغمًا عنه وجد دمعات عرفت الطريق إلى عينيه وسالت على وجنتيه، فمسحها بكفه وانطلق لصلاة الفجر.

– السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. السلام عليكم ورحمة الله.

سلّم الإمام منهيًا الصلاة وتبعه المصلون، ثم أقبلوا يسلّمون على الإمام والحاج إبراهيم، وكادوا أن ينصرفوا كلٌ إلى شأنه إلا أن صوت الإمام استوقفهم قائلًا:

– أيها الأخوة الأحباب، انتظروا لحظات.

تجمّد الجميع في أماكنهم وأنصتوا بانتباه لما سيقوله الإمام، فهو لا يستوقفهم بعد صلاة الفجر إلا في أمر عظيم، فتابع الإمام قائلًا:

– توفيت إلى رحمة الله تعالى اليوم الحاجة أم صالح، وسيتم الدفن اليوم إن شاء الله بعد صلاة الظهر، والعزاء ببيت الماوردي، ولا أراكم الله مكروهًا في عزيز لديكم، توبوا إلى الله واستغفروه يرحمكم الله.

نزل الخبر عليهم كالصاعقة، فالحاجة أم صالح لم تكن تشتكي مرضًا، ولكن منذ متى يفرّق الموت بين صحيح ومريض؟، بادر الجميع بتعزية الحاج إبراهيم في مصابه، وقد بدا مظهره الباكي وملابسه غير المهندمة على صعوبة فراقها أو هذا ما ظنوه حينها بينما ردد بعضهم في أسى:

– لا حول ولا قوة إلا بالله.. رحمك الله يا أم صالح.

انفض المجلس وانطلق الجميع لشئونهم، وهم يدعون للمرحومة، بينما تسائل بعضهم عن كيفية الوفاة، ولكن دون أن يحصلوا على أي جواب، فقد امتنع الجميع عن سؤال الحاج لهيبته ومراعاة لمشاعر الحزن البادية عليه، حتى أنهم أصابتهم الدهشة حين رأوه يمر بحقولهم كما اعتاد أن يفعل دومًا، والكل يلقي عليه التحية ويقدم له واجب العزاء، والحاج يرد عليهم بإشارة شاكرة بيده ويتمتم ببعض الكلمات فسّروها على أنها ردًا لتعازيهم، بينما نظراتهم تتابعه وهو يتخذ طريق العودة إلى بيته.

دخل الحاج إلى وهو يتنهد بعمق كأنه ألقى عن صدره حملًا ثقيلًا، ولكنه فوجئ بعاصم الذي عاد توًا من القاهرة يحتضنه بقوة وهو يقول بصوت باكٍ:

– عظّم الله أجرك يا أخي.. البقاء الله.

أجابه الحاج بخفوت:

- سعيك مشكور يا أخي.

- كيف حدث هذا؟.. ومتى؟

أجابه الحاج بحزن حقيقي، بينما غصة مريرة تكاد تمنعه من مواصلة الحديث وقال:

- لا شيء.. اشتكت من بعض الصداع ونامت لترتاح قليلًا، فلما طال نومها أصابني القلق فذهبت لأوقظها، فلم تستيقظ وعلمت أن السر الإلهي عاد إلى بارئه.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. رحمها الله يا أخي.

قال الحاج بأسى وهو يستعد لدخول خلوته:

- رحم الله الجميع.

استوقفه صوت عاصم وهو يقول:

- يا حاج.

التفت إليه إبراهيم مستفهمًا، فتنحنح عاصم وتابع بحرج قائلًا:

- ألن نخبر صالح بوفاة أمه؟

اشتعلت عينا الحاج إبراهيم بالغضب وقال:

- لا تذكر اسم هذا الجاحد أمامي مرة ثانية، ولن تخطو قدمه على أرض الواحة إلا بعد وفاتي.. أفهمت؟

أجابه عاصم وهو يشير إليه بيده ليهدئ من غضبته:

- ولكن يا حاج....

قاطعه إبراهم بحزم وقال:

– لا تراجعني في هذا مرة أخرى يا عاصم.. قضي الأمر.

هز عاصم كتفيه بيأس وقال:

– أمرك يا أخي.. عسى الله أن يصلح الأمور.

أدار له الحاج ظهره وتوجه نحو الخلوة في خطوات سريعة على غير عادته، لاحظها عاصم ولكنه لم يشغل باله بها وانطلق نحو غرفته ليرتاح من عناء السفر، بينما توجّه الحاج للبئر مباشرة حيث وجد هند تجلس على كرسيه وتعبث بعصاه في الأرض، وما أن رأته حتى قفزت كطفلة صغيرة وألقت بنفسها بحضنه وهي تسأله قائلة:

– حمدًا لله على سلامتك يا حاج.. كنت قلقة عليك.

– بل أن الذي كدت أموت قلقًا عليك.

احتضنته أكثر وقالت:

– بعد الشر عنك يا حاج.. لا تقل مثل هذا أبدًا.. ولكن أخبرني كيف سار الأمر؟

– سار على خير وجه والحمد لله، لقد علم الجميع بخبر وفاتك بعد الشر عنك وسيتم الدفن بعد صلاة الظهر.

– أعانك الله يا حبيبي.

– بارك الله فيك يا هند.. سأتركك الآن حتى لا ينتبه أحد لغيابي، وسأعود لكِ في أقرب وقت.

اكتست ملامح هند بالحزن لفراق الحاج ولكنها قالت:

– في رعاية الله يا إبراهيم.

قبّل الحاج رأسها وعاد إلى حجرة الخلوة يدعو الله أن يتم خطته على خير، حتى أذّن المؤذن لصلاة الظهر فخرج وهو وعاصم وشابين من القرية يحملان تابوت هند المزعوم، وصلوا عليها صلاة الجنازة بعد أن أتمّوا الظهر، وبعدها انطلق كل أهل الواحة في جنازة مهيبة نحو مقابر الواحة، ارتفعت أصوات بعض النساء بالنواح على المتوفاة فزجرهم الحاج بخشونة قائلًا:

– لا تنحن عليها فهي بريئة من نواحكن وكل ما لا يرضي الله، مَن كانت تحبها بالفعل فلتدعو لها بالرحمة.

كتمن صرخاتهن ودعون لها بالرحمة والمغفرة، في حين أصرّ الحاج إبراهيم على دفن زوجته وحده ودون معاونة أي أحد حتى لحّاد الواحة «عبده التُربي»، فلم يجدوا بدًا من موافقته على ما أراد، وقد فسّروا ذلك بشدة حبه ووفائه لزوجته فيأبى أن تدفنها أيادٍ غريبة، ولكن الحقيقة أنه كان يخشى أن يثير الكفن ريبة أحدهم، فنزل إلى المقبرة وحده وحمل الكفن وسوّاه، ثم أهال عليه التراب أمام نظرات أهل الواحة الذاهلة.

مالت الشمس نحو المغيب وهي تلملم آخر أشعتها نحو هذه الأرض لتستعد للشروق في مكان آخر من هذا العالم، دون أن تكترث ببيت الماوردي الذي اكتظ عن آخره برجال ونساء وأطفال من كافة الأعمار، وقد انشغلت بعض النساء بخدمة مَن جاء لتقديم واجب العزاء من النساء، وانهمك بعضهن في إعداد كميات كبيرة من الطعام تكفي كل هؤلاء، أما في سرادق العزاء المقام أمام البيت، وقف الحاج إبراهيم وبجواره أخوه عاصم في مقدمة السرادق، في حين وقف

بجوارهم كبار المشايخ والعائلات بالواحة يتلقون معهم العزاء، بينما جلس الشيخ «إسماعيل الحافظ» إمام القرية ومقرئها يتلو آيات من آخر سورة الفجر، ورغم هول الموقف.. لاحظ الجميع شرود الحاج إبراهيم، وأرجعوا ذلك لحزنه الشديد على فراق رفيقة عمره، دون أن يعلم الجميع أنه رغم قلقه على رفيقته إلا أنه شعر بارتياح عجيب يغزو قلبه بعد نجاح خطته، ولم يعد يشغله الآن سوى ما ستحمله له الأيام القادمة.. والحقيقة أنها ستحمل له الكثير من المفاجآت.. ولكنها لن تكون سارة على الإطلاق.

* * *

الفصل الخامس عشر

تفاصيل مزعجة

على مدار الأشهر الماضية تابع رشاد عمل صالح دون أن يشعر هذا الأخير بشيء، والحق أن الفتى أثبت جدارة منقطعة النظير، لم يرفض أي عمل تم تكليفه به قط، ينفذ ما يوكل إليه من مهام بلا مناقشة.. لا يكترث بانحطاط العمل الذي يمارسه أو رفعته، ما لم يمس كرامته.. حتى يوسف الذي لا يرضَ عن أحد بسهولة، وجده مرتاحًا إليه، وإن شكي إليه أنفته واعتزازه بنفسه، فهو يعامل الجميع بندية مع الحفاظ على الاحترام الواجب تجاه رؤساءه، ولم يكن يوسف معتادًا على مثل هذه النوعية من البشر.. فهو لا يعرف سوى النفوس الخاضعة الذليلة التي تكدح من أجل لقمة العيش، وترضى بالفتات الملقي إليها دون اكتراث.. أما صالح فنوع آخر.. نوع مختلف حتى عن يوسف.. إنه هو.. كلما رآه يتذكر شبابه وعمله بوكالة الغلال، كلاهما خُلق من ذات المعدن النفيس المهووس بالنجاح والطموح، كلاهما لا يلقي بالًا لعادات وتقاليد يمكن أن تكبّله في طريقه نحو المجد.. كلاهما يحتمي بإراداته الفولاذية للحصول على ما يريد.

امتدت يده باسترخاء نحو جهاز الاتصال الداخلي وضغط أحد الأزرار قائلًا:

- أحضر لي صالح.

- أمرك يا سيدي.. ولحظات ويكون في مكتبك.

وبالفعل لم تكد تمر عدة لحظات حتى ارتفع صوت مدير مكتبه من خلال جهاز الاتصال وهو يقول:

- صالح بالخارج يا سيدي.

أجابه رشاد بهدوء قائلا:

- دعه يدخل.

دخل صالح بخطوات ثابتة رغم ما يبدو عليه من إنهاك وقال:

- طلبتني يا سيد رشاد؟

تطلع إليه رشاد طويلًا دون أن ينبس ببنت شفة، في حين التزم صالح بالصمت والثبات منتظرًا ما سيسفر عنه حديث حموه المستقبلي الذي قال بعد فترة من الصمت:

- كيف حالك يا صالح؟

- بخير والحمد لله.

- هل أنت مرتاح معنا هنا؟

أجابه صالح بصوت هادئ النبرات واثق وقال:

- لا يوجد عمل مريح.. ولكن يوجد عمل مجزي وآخر لا.

ابتسم رشاد لإجابته الدبلوماسية وقال:

- والعمل معنا من أي نوع؟

- مجزي للغاية يا سيدي.

اتسعت ابتسامة رشاد وهو يقول بعد أن نفث دخان سيجاره الذي أشعله للتو:

– مجزي بعد وضع زواجك من مها في المعادلة بالطبع، فلا أعتقد أن شابًا مثلك سيقرر أن العمل مجزي لمجرد أنه يتلقى بضعة مئات من الجنيهات.

التزم صالح بالصمت في حين أردف رشاد قائلا:

– لا بأس من الطموح يا صالح، فهو الوقود الحقيقي للناجحين أمثالنا.

– أمثالنا؟

– بالطبع يا صالح.. هل تعتقد أن عملك معي من باب الشفقة؟.. هل تعتقد أنني كنت سأتردد في طردك فورًا بعد دقيقة من لقائنا السابق ما لم تكن موهوبًا؟

لم يدرِ صالح هل يشكره لمدحه أم يسبّه لوقاحته؟.. ولكنه رغم كل ما اعتمل في أعماقه من مشاعر قال بصوت هادئ:

– أشكرك على حسن ظنك يا سيد رشاد.

– لا تشكرني يا بني.. أنت فعلا تستحق.

انتفض صالح لدى سماعه كلمة «بني» بصوت رشاد، خاصة وأنه قالها بصوت ذو نبرة حانية نوعًا ما، تختلف تمامًا عن طبيعته المتعجرفة التي اعتاد التحدث بها، لا يعلم لم شعر بالفخر يتملكه عند سماعه هذه الكلمة؟، لماذا لم يفهمه أبوه مثلما فهمه هذا الرجل؟.. لماذا لم يقدّر مواهبه وذكائه ويحتويها كما يفعل رشاد؟.. ولكن كل

هذه الأسئلة ظلت تدوي في عقله بلا إجابة، في حين تابع رشاد قائلًا بصوت حاني:

– أنت تعلم أنني لم أنجب ولدًا، وليس لي سوى ابنتي مها، لذا فقد قررت أن يكون زوجها ابنًا لي.. وقد اختارك القدر لتكون أنت هذا الابن، كما أنك تشبهني إلى حد كبير.

تأثر صالح بكلمات رشاد وقد لامست وترًا حساسًا في روحه، فأجابه بصوت مختنق:

– هذا شرف لي يا سيد رشاد.

احتضنه رشاد بين ذراعيه بقوة وقال:

– يوم الخميس القادم سنعلن عن خطبتكما أنت ومها، والزواج سيكون في الوقت الذي يناسبكما.. ومنذ اليوم ستكون أنت ابني.

ألقى صالح بنفسه بين ذراعي رشاد وهو يكاد يطير فرحًا، فأخيرًا ستبتسم له الحياة.. فها هو يتزوج بمن يحب.. وسيحيا حياة الملوك التي طالما حلم بها، وكل ذلك في ضربة واحدة.. نظر لحميه بامتنان وقال:

– أشكرك يا عمي.. أشكرك كثيرًا.

– هيا اذهب لخطيبتك الآن لتزف إليها الخبر، فأنت في إجازة حتى نهاية اليوم.

صافحه صالح بقوة وانطلق ليبشّر حبيبته بالخبر، أخرج هاتفه الخلوي وسارع بالاتصال بها، وما أن جاءه صوتها عبر الأثير حتى صاح قائلًا بفرح:

– مها.. لقد وافق أبوك على خطبتنا.

أجابته بسعادة وهي تلهث بقوة وقالت:

– حقًا؟

– نعم يا حبيبتي.. استدعاني اليوم إلى مكتبه وتحدث معي بخصوص موضوعنا ثم أعلن موافقته على خطبتنا يوم الخميس القادم، وترك لنا تحديد موعد الزفاف.

– إنه أجمل خبر سمعته في حياتي.

تغيّر صوت صالح وخفتت فرحته قليلًا وهو يتسائل قائلًا:

– وأنا أيضًا.. ولكن لماذا تلهثين هكذا؟.. أين أنتِ؟

– أنا في النادي.

– حسنًا أنا قادم إليك حالًا.

– في انتظارك يا حبيبي.

– أنهى المكالمة وعقله يعمل بقوة ليؤكد على فكرة ما خطرت له أثناء المكالمة، ويوشك أن يتيقن من صحتها فور وصوله إلى النادي.. عبر البوابة كالإعصار وتوجّه مباشرة نحو ملعب التنس الذي يظن أن خطيبته به، وبالفعل لم تخيب ظنونه وليتها فعلت حيث وجدها تقف في منتصف الملعب بسروال قصير، لا يصل حتى إلى ركبتيها، بينما ساقيها العاريين يلمعان تحت أشعة الشمس، في حين تناثر مجموعة ليست بالقليلة من المتفرجين في مدرجات الملعب، احتقن وجه صالح بالدماء لرؤيتها بهذا المنظر السافر.. خاصة بعد أن سلّمت على منافسها في اللعبة ودعته يقبّل أناملها، فلم يستطع أن يتمالك أعصابه وانطلق نحوها ممسكًا إياها من ذراعها وقال:

– ماذا تفعلين؟

نظرت له مها بمزيج من الدهشة والغضب وصاحت به قائلة:

– ماذا هناك؟.. وكيف تعاملني بهذه الطريقة؟

صاح بها بغضب غير مبالٍ بنظرات الناس من حولهم وقال:

– ترتدين سروالًا لا تلبسه طفلة صغيرة لا يكاد يصل لركبتيك.. وتدعين شخصًا غريب يقبّل يدك، ثم تقولين كيف تعاملني هكذا؟.. ألا تحترمين وجودي في حياتك؟

جذبت ذراعها من يده بعنف وقالت:

– أولا هذا زي التنس، لا مجال فيه للإثارة يا ضيق الأفق.. ثم إن هذا حسام المدرّب الذي يعلمني وتقبيله ليدي من قبيل المجاملة لا أكثر.. وحقيقة لا أفهم ما علاقة كل هذا باحترامي لك؟

– لا يا فتاة المجتمعات الراقية، أنتِ ستتزوجين بدويًا.. هل تفهمين هذا؟.. أي أنني حتى لو تساهلت معك قليلًا، لن يصل تساهلي إلى هذه الدرجة.. هيّا اذهبي إلى غرفة الملابس وارتدي ملابس مناسبة.

– لا أسمح لك أن تأمرني هكذا.

جذبها من يدها باتجاه غرفة الملابس وهي تطلق صرخات قصيرة متألمة وقال بصرامة:

– بل آمرك بأكثر من هذا.

ثم لان صوته وقال بصوت رقيق:

– لأني أحبك وأغار عليك كثيرًا.

ارتسم شبح ابتسامة على شفتيها ولكنها تظاهرت بأنها ما زالت غاضبة وقالت بدلال:

- ولكنك متوحش وآلمتني بشدة.

ابتسم لها برقة وقال:

- أنا آسف يا حبيبتي.

ابتسمت بخجل وأجابته قائلة:

- أحبك أيها الرجعي.

احتضن كفها في حب، ولكن عقله لم يتوقف عن التفكير حول اختلافاتهما التي لا تنتهي.. هل سيستطيعان الاستمرار هكذا للأبد؟.. أم سيرحل الحب تاركًا العاشقين في جحيم من الاختلافات؟... بقى سؤاله معلق في عقله بلا جواب.. وبلا أدنى أمل في جواب قريب.. وفي الوقت المناسب.

* * *

الفصل السادس عشر

هند الماوردي

لم تتغير الأحوال كثيرًا في الواحة من بعد وفاة هند المزعومة، فيخرج الحاج إبراهيم كل يوم لصلاة الفجر وبعدها يبدأ جولته المعتادة، ثم يعود إلى بيته حيث يتوجه لخلوته ومنها إلى البئر حيث تمكث هند، فيحضر لها ما يلزمها من طعام وملابس، فيمكث عندها بعض الوقت ولا يخرج قبل الظهيرة ليؤدي الصلاة في المسجد وبعدها ينصرف لشئونه الخاصة حتى المساء، ويعود إلى هند للاطمئنان عليها ثم يتوجه للنوم.

استمر الحال على هذا المنوال لأربعين ليلة كاملة، وفي منتصف الليلة الأربعين نزل الحاج إلى البئر فأيقظ زوجته برفق وقال:

– هند.. هند.. استيقظي فقد آن الأوان.

تململت هند في نومتها وهي تصدر أصواتًا خافتة تدل على عمق نومها، ربّت الحاج على كتفها برفق وقال:

– هيا يا هند استيقظي.. أمامنا الكثير لنفعله.

أفاقت هند من نومها والحاج يمسك بذراعها ليساعدها على النهوض، بينما يشير بيده الأخرى باتجاه ماء البئر، فيجري في مجرى

صغير باتجاهه فيملأ كفه بالماء وينثره على وجهها حتى استيقظت تمامًا واعتدلت في جلستها وقالت:

– ماذا يجري يا حاج؟

أجابها بحماس قائلًا:

– لقد أتممت أربعين ليلة، وآن الأوان لتتعلمي سر الماوردي.

– حقًا؟

– نعم.. والآن هيا نبدأ.

أمسك بكتاب المساخيط بيد وعصا جده بالأخرى، بين وقفت أمامه هند بارتباك لا تدري ماذا سيفعل بها، وقد بدا لها زوجها الذي عرفته طوال السنوات الماضية غريبًا عنها في هذه اللحظة، وكأنه تحوّل إلى شخص آخر بمجرد أن يصير الماوردي، حتى أنه بدا في نظرها أطول قامة.. حتى صوته تغيّر وصار أعمق وأقوى وهو يقول بصوت جهوري تردد صداه بين جنبات الكهف:

– باسم الله الذي اصطفى الماء فجعل منه كل شئ حي.

جذب انتباهها سرعة جريان الماء في كل اتجاه، في حين تابع الحاج:

– باسم الله الذي اصطفى الماء ليكون عرشه عليه.

الماء يحيط بها من كل جانب ويزداد منسوبه، بينما يتعالى صوت زوجها:

– بحق ما تلقّاه المساخيط وورد في برديا‌تهم عن نبي الله يوسف أن هذا الماء يجري فيسقي المراعي، وأنه يحمل الخير لكل الدواب، وأنه هو الذي يسقي الأراضي الصحراوية البعيدة.

بدأ القلق يساورها وقد وصل الماء لخصرها، وشعرت وكأن زوجها قد أصابته لوثة ما، فصار يردد عزائمه بصوت عالٍ والماء من حولها يدور وكأنه أصابه الجنون هو الآخر..

– إنني أردد مع اخناتون ملك المساخيط في أزمنته الغابرة نشيده وهو يدعوك قائلًا أنك أنت خلقت ماء النيل في هذا العالم الأرضي، وأنت تخرجه من الأرض بأمرك لتحفظ به الناس.

وصل منسوب المياه إلى عنقها وقلقها قد تحول إلى ذعر متوحش وهي تحاول الفرار من قبضة الماء التي تحيط بها بلا جدوى، زوجها لا يكاد يلتفت إليها وهو يردد قائلًا:

– يا إله الجميع حين يتسرب إليهم الضعف..أنت الذي خلقت السماء وجعلت فيها النيل، وجعلت في الأرض نيلًا يخرج من باطن الأرض ليروي أرضنا.. فما أبدع تدابيرك.

– يا حاج أغثني بالله عليك.

هكذا صرخت هند والماء يصل إلى ذقنها، وظنت أنه ما هي إلا لحظات وتموت غرقًا، ولكن الحاج أشار لها بيده فتوقف منسوب المياه عن الارتفاع، وقال بصوته العميق:

– افتحي فمك، وتلقّي الهبة الإلهية.

فتحت فمها بحذر، فانسال داخله خيط رفيع من الماء، وهي تشرب وتشرب دون أن تشعر بعطش أو ارتواء، فقط تشعر بالحيوية تسري في أعضائها، وأن خلاياها تنتفض انتعاشًا ونشوة، بينما اقترب منها الحاج واغترف من الماء بكفه العريض غَرفة ثم صبها على رأسها وهو يتلو قائلًا:

- بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾.

ثم اغترف غرفة أخرى وصبّها على رأسها وهو يقول:

- بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾

ثم اغترف ثالثة وهو يردد قائلًا:

- سبحان مَن جعل في الماء سر الحياة.. وسر الطهور.. وسر الشفاء.. اللهم صلِّ على سيدنا محمد في الأولين وفي الآخرين، وفي الملأ الأعلى إلى يوم الدين.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

قالها وهو يحمل جسدها المسترخي إلى حيث يمكنها أن تنام، أما هند فلم تعد تشعر بما حولها، وكأن بينها وبين العالم حاجز غير مرئي، فلم تعد تسمع شيئًا أو ترى شيئًا.. فقط تشعر باسترخاء تام في كل أطرافها فلا تستطيع تحريك إصبع لها حتى.

أجلسها الحاج على مقعدها، ووضع بجوارها الكتاب والعصا ثم رحل في صمت وقد اطمئن أن المرحلة الأولى قد مرّت بسلام، انتابته الحسرة وهو يتذكر ولده صالح وأنه كان المفترض أن يكون هو الماوردي الآن.. ورغمًا عنه وجد نفسه يقول في حزن:

- لماذا يا صالح؟.. لماذا؟

حاول أن يتمالك نفسه وألا يسمح للحزن بأن يسيطر عليه، وقد عاد إلى الخلوة، فجلس قليلًا يذكر الله ويحمده ويستغفره، حتى سمع صوت عاصم يعود إلى البيت، فخرج إليه وقال بهدوء:

- كيف حالك يا عاصم؟

هرع إليه عاصم يحتضنه ويقبّل يده قائلًا:

- بخير ما دمت بخير يا حاج.

ربّت إبراهيم على كتفه وقال:

- الحمد لله.. تعال أريدك في موضوع هام.

توجّس عاصم خيفة من لهجة أخيه، فتلك الجملة دائمًا ما يتبعها حديث عن وجوب زواجه، وأنه صار وحيدًا.. ويجب أن ينجب ابنًا تفرح به عائلة الماوردي، وهو لن يتزوج بعد رحمة.. لا يستطيع.

- كما ترى يا عاصم، لقد فرغ البيت من ساكنيه.. لم يعد سوى أنا وأنت وبعض الخدم، حتى مَن كانت تخدمنا وتؤنس وحدتنا ذهبت إلى بارئها.

ردد عاصم في خفوت:

- فليرحمها الله.

تابع الحاج حديثة بسرعة قائلًا:

- فليرحم الله أمواتنا وأموات المسلمين جميعًا، ولكن كما يقولون في المثل «الحي أبقى من الميت».

حاول عاصم إضفاء جو من المرح لعله يؤخر لحظة المواجهة قليلًا رغم يقينه من وقوعها فقال:

- هل تنوي الزواج يا حاج؟

- ليتني كنت شابًا مثلك، لم أكن لأتأخر كل هذا الوقت في اختيار شريكة حياتي الجديدة.

أجابه عاصم مازحًا وقال:

– أعطاك الله الصحة وأطال عمرك يا أخي.

– آمين يا رب.. والآن قل لي.. هل وقع اختيارك على واحدة من فتيات الواحة؟

رد عاصم بهدوء وقال:

– ليس بعد يا أخي الغالي.

أعاد الحاج سؤاله من جديد قائلًا:

– ولا حتى من الواحات حولنا.

تنهّد عاصم بنفاذ صبر وقال:

– لا يا أخي لم أفعل، وحين أفعل سآتي إليك وأخبرك.

احتدّ الحاج إبراهيم وقال في انفعال:

– إن كنت تظن أنك ستتركني حتى أنسى، فأنا لن أنسى مطلقًا.. ستتزوج يا عاصم أيا كانت النتائج.

نظر له عاصم بهدوء وأخذ شهيقًا وطويلا وقال:

– لن أتزوج بعد رحمة يا أخي.. وهذا آخر قولي.

قالها وترك أخاه يكاد ينفجر من الغيظ، فها هي حبة جديدة من مسبحة الماوردي توشك أن تنفرط بعد أن انفرطت حبة صالح.. ولكنه لن يسمح بذلك أبدًا.. لن تنفرط مسبحة الماوردي مهما كلفه الأمر.. حتى لو اضطر لمهادنة عاصم الآن في أمر زواجه حتى تنصلح الأحوال وبعدها ينظر ماذا يرى.. سيحافظ على تماسك هذه العائلة مهما كلفه الأمر.. مهما.. كلفه... الأمر.

الفصل السابع عشر

الزفاف

تراقصت الأضواء الملونة في كل جانب من تلك القاعة الفاخرة في أحد فنادق الكبرى بالعاصمة حيث يقام حفل زفاف صالح على مها، وقد احتشدت القاعة عن آخرها برجال يرتدون بذلات بالغة الفخامة ويدخن أكثرهم ذلك السيجار الكوبي الذي يكفي ثمن واحد منه لإطعام أسرة فقيرة لشهر كامل، في حين ارتدت النساء فساتين متباينة التصميمات حسب أحدث الصيحات العالمية والتي تم شراء بعضها من محال باريسية خصيصًا، ورغم تباين التصميمات إلا أنها جميعًا اتفقت أن تكشف أكثر مما تستر.

بدا صالح الماوردي وسيمًا للغاية في بذلة زفافه هو الآخر بعد أن تخلّى عن زيّه البدوي التقليدي الذي نشأ عليه، بينما جلست بجواره عروسه مها في فستان بديع مرصع بالألماس كشف عن كتفيها البضين، وقد زيّن عنقها عقد رائع من الألماس أيضًا تتوسطه حلية زرقاء من حجر كريم زادها جمالًا فوق جمالها، تبادلا الهمسات من حين لآخر حيث مال عليها صالح قائلًا بابتسامة واسعة:

- مبارك علينا يا حبيبتي.

– مبارك يا صالح.. أخيرًا جاءت اللحظة التي انتظرناها طويلًا.

– نعم أخيرًا يا حبيبتي.. ولكن....

صمت قليلًا وقد اكتست ملامحه ببعض الضيق، فسألته مها في اهتمام قائلة:

– ولكن ماذا يا حبيبي؟

– ألا ترين أن هذا الفستان يكشف عن جسدك كثيرًا.

انعقد حاجبا مها في غضب وقالت:

– أفٍ يا صالح.. ألن ننتهي من هذا الموضوع أبدًا؟.. ألا تدع أي لحظة سعيدة تمر بنا دون أن تفسدها بانتقاداتك السخيفة.

تراجع صالح وقد خشى أن يفسد ليلة زفافه وقال معتذرًا:

– أنا آسف يا حبيبتي، ولكنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من الغيرة عليك.

لانت ملامحها قليلًا وقالت:

– اصبر قليلًا ومن الليلة سأكون لك وحدك، وحينها تفعل بي ما تشاء.

ضحك صالح بسعادة وقال وهو يقبّل كفها:

– اتفقنا يا حبيبتي.

وفي حين انشغل كلاهما بحديثهما الهامس، كانت هناك عينان تراقبانهما من بعيد في سعادة، وقد التمعت فيهما نشوة النصر، ثم التفتا نحو الواقف بجواره وقال صاحبهما:

– انظر يا يوسف.. أليسا رائعين بحق؟

تجرّع يوسف كأس الخمر الممسك به دفعة واحدة احتقن على أثرها وجهه بالدماء قبل أن يهز رأسه بقوة ويقول:

– بالتأكيد يا رشاد.

ثم تابع متهكمًا:

– عصفوران من الكناريا يغردان على غصن الحب.

نظر له رشاد بغضب وقال:

– ألا تستطيع أن تكف عن سخريتك المقيتة هذه حتى في فرح ابنتي؟

ضحك يوسف ضحكة مجلجلة وقال:

– اعذرني يا صديقي، فالطبع يغلب التطبع.

ثم انتقلت ملامحه فجأة للجدية دون مقدمات وقال باهتمام:

– ولكني ما زلت لا أفهم كيف وافقت على هذه الزيجة حتى الآن؟.. فابنتك رغم حداثة سنها، قد تقدم لخطبتها أبناء كبار العائلات، مَن كان أبوه سفيرًا.. وآخر ابنًا لوزير سابق.. وثالث ابنًا لأحد كبار رجال الأعمال.. وترفض كل هؤلاء وتقبل بهذا البدوي؟!!

ابتسم رشاد في دهاء وقال:

– هذا لأنك ضيق الأفق محدود الذكاء يا عزيزي يوسف.. إن هذا الفتى كنز بحق.

حكّ يوسف رأسه في حيرة، فهو لم يفهم مقصد صديقه تمامًا، فتسائل قائلًا:

– وكيف هذا أيها العبقري؟

– إذا زوّجت مها من أحد هؤلاء الذين ذكرتهم، ربما استفدت خدمات محدودة وقتية يمكن الاستعاضة عنها، ولكن في نهاية المطاف سأموت وأترك كل ثروتي لهم ينعمون بها، ولا أدري بعد هذا إن كانوا سيسعدون ابنتي أم لا.. فأنت تعرف هؤلاء الشبان أكثر مني وتعرف طيشهم، أما هذا البدوي الذي تستحقره عيناك فهو نبتة انتزعت من تربتها وتبحث عن تربة جديدة لتغرس نفسها فيها، وأنا هذه التربة التي زرع نفسه فيها، لذا فسيكون بمثابة ابن لي لم أنجبه يحافظ على ابنتي وثروتي.. وأضمن أن يصونها بأخلاقه التي اختبرتها جيدًا.

أجابه يوسف وقد بدا عليه عدم الاقتناع وقال:

– جيد جدًا ولكن....

قاطعه رشاد قائلًا بصرامة :

– لم أكمل حديثي بعد.

– حسنًا تفضّل.. كلي آذان صاغية.

أشار رشاد بيده إلى أحدهم محييًا وقال وهو يتناول كأسًا:

– هذا على الصعيد الشخصي، ولكن ماذا عن صعيد العمل الذي لا يعرف العواطف؟.. ستجد أنه كنز أيضًا، فمن ناحية هو ابن كبير الواحة، وإن عاجلًا أو آجلا سيصبح هو كبيرها.. وحينها ستتحكم نحن وحدنا في الحدود الغربية، ولن تدخل رصاصة واحدة إلى مصر من هذه الناحية إلا عن طريقنا.. وعلى صعيد آخر فإن صدقت معلوماتك عن خرافة تحكم عائلته في الماء في هذه الواحة، فربما أسسنا شركة لتعبئة مياه الآبار ونعلن عن قدراتها الشفائية، وتصدر للخارج بأغلى الأثمان، ومن ناحية ثالثة سنؤسس مشروع سياحي في تلك المنطقة

للتغطية على نشاط عملياتنا هناك، وهذا سيدر علينا الملايين أيضًا.. ومن يدري ماذا سنجد هناك أيضًا؟.. ربما وجدنا بعض الآثار.

نظر له يوسف في ذهول وقال:

– أنت شيطان حقيقي.

ابتسم رشاد في فخر وقال:

– أرأيت؟

– رأيت أيها الداهية.. ليت لي ربع هذا الذكاء.

– ليس على الجميع أن يكونوا أذكياء يا عزيزي، فبعض الناس خلقت لتكون مثلك في براعة التنفيذ.. وبعضهم خلق ليكون مثلي يضع خطط بعيدة المدى.

أنهيا حديثهما في حين ظهرت من مكان ما بالقاعة راقصة تتمايل برشاقة وغنج على أنغام إحدى الأغنيات الشعبية التي تطرب لها الطبقات الدنيا من الناس، ولكنها أصابت الحاضرون بالقاعة بالجنون فهبّ الجميع يرقصون عليها، وقد اختلط الحابل بالنابل، فلم يعد يفصل بين الأجساد الملتحمة سوى بضع ملليمترات لا تكاد ترى.. وبعد أن أنهت الراقصة فقرتها أعلن منظم الحفل عن افتتاح فقرة الرقص الثنائي على أن يبدأ العروسان بالرقصة الأولى، فتوجها نحو منتصف القاعة واحتضنها صالح برفق وقد ظهر عليه التوتر إذا لم يرقص مثل هذا الرقص من قبل، ورغم هذا وببعض المساعدة من مها تمكّن من تنفيذ الحركات الراقصة بمهارة عالية مقارنة بأنها المرة الأولى له، نظر لها بسعادة وقال:

– هذا أسعد يوم في حياتي.

- سأجعل من حياتك كلها أيامًا سعيدة يا حبيبي.

واصلا رقصهما تحت نظرات رشاد المتابعة لهما، وهو يبتسم بسعادة وفخر، وعيناه تكادان تضيئان من شدة لمعانها.. فبزواج صالح من مها.. لم يعد أمامه أي طريق للفرار مما يجهزه له.. أي طريق.

* * *

الفصل الثامن عشر

انكسار

خلت الطرقات من السائرين في ذلك الوقت من الظهيرة، حيث ترتفع درجات الحرارة لتحوّل أرض الواحة لجحيم مستعر يشوي أقدام مَن يجرؤ على السير في مثل هذه الساعة، حتى حيوانات الصحراء وهوامها تنكمش في جحروها وسراديبها تحتمي بظلالها من قسوة شمس الصحراء المهلكة، أرخى عاصم ستائر نافذته لعلها تحجب هذا اللهيب، لم يكن يرغب في النزول إلى بهو الدار بالأسفل حيث جلس الحاج إبراهيم يحتسي الشاي كالعادة، فمنذ المواجهة الأخيرة بينهما وكلاهما يتجنب الآخر قدر المستطاع كيلا يؤدي لقائهما إلى تجدد الصدام بينهما، استلقى على سريره وهو يداعب صورة رحمة بشوق يائس اعتاده منذ رحلت عن عالمنا تاركة إياه جسدًا بلا روح، قرّب الصورة من شفتيه يقبّلها وقال في قنوط:

– رحمك الله يا حبيبتي.

ارتفع رنين هاتفه الخلوي يقطع عليه ذكرياته فانعقد حاجبيه بقوة وهو يقول محدّثا نفسه:

– صالح؟.. خير يا ترى؟

التقط الهاتف مجيبًا مكالمة صالح وهو يقول:

– كيف حالك يا صالح؟.. هل أنت بخير؟

جاءه صوت صالح عبر الهاتف مرحًا سعيدًا وهو يقول:

– أنا في أتم خير يا عمي.. كيف حالك أنت؟.. وكيف أبي وأمي؟

ارتج القول على عاصم فلم يدرِ هل يخبره بوفاة أمه أم لا، فآثر ان يغيّر مجرى الحديث وقال:

– أين أنت يا ولد؟.. وكيف لا تتصل بي كل هذه الفترة؟

أجابه صالح في سعادة قائلا:

– اعذرني يا عمي فقد كنت مشغولا للغاية الفترة الماضية.. ثم إنني.....

صمت للحظات ليثير فضول عمه ثم أردف قائلًا:

– ثم إنني تزوجت مها.. وعدنا للتو من شهر العسل.

ارتفع صوت عاصم وقال في انفعال:

– ماذا؟.. تزوجتما؟.. كيف؟ ومتى؟.. وكيف لا تخبرني بأمر كهذا؟

أجابه صالح بهدوء وبحزم:

– عمي.. كل شيء حدث بسرعة ولم أكن أرتب له.. وما حدث قد حدث، وشجارنا الآن لن يغير من الأمر شيئًا، فالأفضل أن نبقي على اتصالنا بدلا من أن نقطع كل أواصر الصلة بيننا.

صمت عاصم وفكّر في الكثير من الردود التي يمكن أن يجيب بها ابن أخيه، هل يغضب عليه ويسبه ويقطع كل ما بينهما بالفعل؟..

أم الأفضل أن يحافظ على الشعرة بينه وبين صالح لعله يعود يومًا ما من هذا الطريق؟.. مال قلبه أكثر للخيار الثاني، فقال على مضض:

– حسنًا يا صالح.. أنت وشأنك.

استعاد صوت صالح مرحه السابق وعاد يتسائل قائلًا:

– ولكن أخبرني يا عمي.. كيف حال أبي وأمي؟.. أعرف أنهما غاضبين مني الآن.. ولكنها حياتي ويجب أن أختارها بالشكل الذي يرضيني.. وسأعود في أقرب وقت لأرضيهما.. عمي.. هل تسمعني؟

تنحنح عاصم محاولًا التخلص من الحشرجة التي أصابت صوته وقال بصوت أجش:

– نعم يا صالح أسمعك.

– عمي.. أعرف أن أبي سيرفض الحديث معي ولكن هل يمكن أن تعطي الهاتف لأمي؟.. بالتأكيد لن ترفض التحدث إليّ.

اكتست نبرات عاصم بالحزن ولم يجد مفرًا من إخبار صالح بالحقيقة وقال:

– صالح.. تجلـد يا ولدي.

انتاب الذعر صوت صالح الذي قال بلوعة:

– ماذا حدث يا عمي؟.. هل أصاب أمي مكروه؟

أجابه عاصم وكأنه يلقي عن كاهله حملًا ثقيلًا وقال:

– البقاء الله يا صالح.. عظّم الله أجرك في مصابك في أمك.

انفجر صالح باكيًا بكاءً مزق أعصاب عاصم حزنًا وأسفًا عليه قبل أن يسمع صوته يقول:

– متى حدث هذا يا عمي؟

– في ذات اليوم الذي كنت فيه عندك بالعاصمة، عدت في اليوم التالي فوجدتها قد انتقلت إلى رحمة الله.

صرخ فيه صالح قائلًا بحسرة:

– ولماذا لم يخبرني أحد؟.. لماذا لم تتصل بي يا عمي؟

أجابه عاصم في انكسار وقال:

– سامحني يا ولدي، فأبوك رفض أن يخبرك أحد أو أن تحضر جنازتها.. حتى الواحة يرفض أن تخطوها قدماك طالما هو على قيد الحياة.

ارتفع نحيب صالح وهو يبكي كمدًا وفاة أمه، وعجزه عن حضور جنازتها.. حتى أبيه يرفض أن يراه أو يزور حتى الواحة من حين لآخر، شعر بالضياع في هذه اللحظة كما لم يشعر من قبل، لقد توفت آخر أسباب عودته للواحة، حاول عاصم أن يخرجه من دوامة الأحزان تلك فقال:

– هوّن على نفسك يا صالح، فليرحم الله الجميع، هل أنت سعيد بحياتك الجديدة؟

تمالك صالح نفسه وأجاب عمله قائلًا:

– الحمد لله يا عمي.. ولكن اعذرني يجب أن أذهب الآن.. سنتحدث في وقت لاحق.

– حسنًا يا ولدي.. فليحفظك الله ويشملك برعايته.

أنهى صالح المكالمة وقد خيّم عليه الحزن.. مَن له الآن بعد وفاة أمه؟.. وكيف طاوع أبوه غضبه حتى حرمه من أن يحضر جنازتها؟..

كيف طاوعه قلبه أن ينفيه من الواحة بهذا الشكل؟.. ارتفعت بداخله موجة من السخط على أبيه وقسوته، وملايين الأفكار الغاضبة تدوّي في عقله، لها أزيز كأزيز خلية النحل.. لم يعد له مكان على هذا الكوكب سوى عالم رشاد السيوطي، لن يعود إلى الواحة أبدًا.. ماذا يريد من هذا المكان الموحش الموغل في الصحراء والمغرق في البدائية؟.. لم يعد له مكان هناك.. ولن يسمح أن يكون للواحة مكان في قلبه منذ هذه اللحظة.. سينتزعها من قلبه انتزاعًا وكل ما يرتبط بها من أفكار وذكريات.. بل وحتى أشخاص..

– حبيبي.. ماذا تفعل؟

قالتها مها وهي تحتضنه من الخلف، قبل أن تنتبه إلى ما يعتريه من الحزن فتقول في قلق:

– ماذا حدث؟

أجابه بحزن قائلًا:

– لقد توفيت أمي منذ فترة ولم أعرف سوى الآن.

انقبض قلب مها فجأة، فليس سهلًا على عروس جديدة أن تسمع خبر وفاة وهي لم تتجاوز شهر العسل بعد، خاصة لو كان خبر الوفاة يخص حماتها.. اقتربت منه واحتضنته أكثر وقالت:

– فليرحمها الله.. هي الآن بالتأكيد في مكان أفضل.. اطلب لها الرحمة.

ارتفع صوت نشيجه وهو يقول بصوت باكٍ:

– رحمك الله يا أمي.

لم تجد مها ما تقوله، فاكتفت أن راحت تمسّد على رأسه، لعلها تمنحه من الحنان ما فقده بوفاة أمه، حتى هدأ تمامًا ومسح دموعه، قبل أن ينظر لها بامتنان وقال:

– فليحفظك الله لي يا حبيبتي.

أجابته وقد التمعت عيناها ببريق السعادة وقالت:

– كل شئ يهون إلا أن أراك حزينًا يا حبيبي.

أخذ بيدها وقررا تغيير ملابسهما والخروج للترفيه في أي مكان، ومن أعمق أعماقه راح صوت يردد بداخل صالح أن ينغمس أكثر وأكثر في عالم رشاد.

* * *

الفصل التاسع عشر

فتور

زفرت مها بحنق وهي تتململ في جلستها، وهي تراقب بعينين خاويتين روّاد النادي، في حين جلست بجوارها صديقتها المقربة إسراء تشرب من كوب العصير الذي أمامها في نهم، قبل أن تلتفت إليها مها وتقول في سخط:

– ألا تكفين عن الطعام والشراب طوال الوقت؟

ضحكت إسراء وقالت في لا مبالاة:

– وهل هناك في الدنيا ما هو أمتع من الطعام والشراب؟

ثم غمزت بعينها وقالت في نبرة ذات مغزى:

– والزواج؟

أشاحت مها بوجهها وقالت:

– غدًا تتزوجين وتعرفين الحقيقة بنفسك.

اعتدلت إسراء في جلستها، وهو تقول في فضول:

– لماذا؟.. هل حدث شئ ما بينك وبين صالح؟

نظرت إليها مها للحظات قبل أن تقول:

– لا شئ.

تقافزت إسراء في مقعدها كطفلة صغيرة وأمسكت بذراع مها وهي تقول:

– احكِ لي.. لا تكوني سخيفة.. هيا.

وكأن مها كانت تنتظر مثل هذا الإلحاح لتطلق العنان للسانها وتحكي ما يجيش بنفسها قائلة:

– المشكلة أنه لا شئ بالفعل.. كل الأيام أصبحت متشابهة، بل متطابقة.. ما كان يسعدني بالأمس أصبح مملًا اليوم.. حتى صالح لم أعد أرى فيه ذلك الشاب المختلف الذي أحببته.. صرت أراه مجرد بدوي رجعي يحاول التضييق عليّ بأفكاره المتخلفة، ولكنني في ذات الوقت لا أستطيع البوح بهذا لأبي.. فأنا مَن اخترته منذ البداية.

زمّت إسراء شفتيها وعدّل خصلة نافرة من شعرها وقالت:

– مممممم.. ولكن لم لم تحاولا تجديد حبكما؟.. أن تسافرا مثلًا إلى أي مكان.. تتنزهان سويًا.. تعيدان الروح إلى حياتكما؟

أجابتها مها قائلة في ضجر:

– هل تظنين أن هذا لم يخطر ببالي؟.. لقد اقترحت عليه بالفعل أن نسافر، لكنه اعتذر بأن لديه عمل هام مع أبي.

– منذ متى وأبوك يحتاج إلى أحد في عمله؟.. بالتأكيد هناك سبب آخر.

أجابتها مها بهزة من رأسها وهي تقول:

– لا أعلم.. ولكنه منذ أن علم بوفاة أمه، صار كئيبًا طوال الوقت، منطويًا على ذاته، أصبح كل همّه العمل فحسب، يستقيظ بعد الفجر بقليل ولا يعود إلا بعد منتصف الليل وهكذا.

– ألم تفكري أنه ربما...؟!!

صمتت دون أن تفصح عمّا تقصده فنظرت لها مها باهتمام متسائلة:

– ربما ماذا؟

– أقصد ربما يكون متزوج من أخرى أو يخونك مع إحداهن.

انعقد حاجبا مها بشدة واحتقن وجهها بالدماء وهي تقول:

– هل تظنين هذا حقًا؟

هزت إسراء كتفيها ومطت شفتيها في دلالة أنها ليست متأكدة من ذلك وقالت:

– لا أعلم.. ولكن لا يجب أن نغفل احتمال كهذا.. كل الشباب أوغاد هذه الأيام.

لاذت مها بالصمت تمامًا وهي تفكّر في هذا الاحتمال في حين عادت إسراء تتناول مشروبها قبل أن يأتيها صوت صديقتها وهي تقول بتردد كأنها تريد أن تقنع نفسها بما تقول:

– لا..لا.. هذا احتمال واهي.. بل ليس احتمالًا أصلا.. فصالح رغم كل شئ شاب مستقيم، ثم إنه طوال الوقت في العمل مع أبي، فمن أين سيأتي بالوقت الذي يخونني فيه؟

– أنا أقول ربما وليس أكيد.. ثم إنه يعمل مع أبيك بالفعل ولكنه هل سيظل طوال الوقت تحت أنظار أبيك؟

صرخت مها في وجهها قائلة:

– قلت لا.. صالح لا يخونني.

تراجعت إسراء عن موقفه في خوف وقالت:

– حسنًا.. حسنًا.. ولكن لا تغضبي.. أنا أفكر معك فحسب ولا يهمني سوى مصلحتك.

أسندت مها رأسها إلى ذراعيها وهي تقول:

– أنا آسفة حقًا يا إسراء.. لم أقصد.

احتضنتها صديقتها بود وقالت:

– لا عليك يا حبيبتي، ولكنك تحتاجين إلى بعض الترفيه.

أجابتها مستسلمة وقالت:

– أنت على حق.

– حسنًا.. دعي هذا الأمر لي.

نظرت لها مها متسائلة، فأردفت قائلة:

– الليلة سيقيم حسام المرشدي حفلة رائعة، وسيجتمع فيها كل أصدقائنا.. ما رأيك؟

– ولكنك تعلمين ما يحدث في مثل هذه الحفلات.. ثم ماذا عن صالح؟.. بالتأكيد سيرفض شيئًا كهذا.

– ومن سيخبره؟.. ألم تقولي أنه لا يعود قبل منتصف الليل.. حسنًا سنتقمص شخصية سندريلا ونعود عند منتصف الليل تمامًا.

ابتسمت مها لدعابتها وقالت:

– أنتِ محقة.. لم لا؟

– إذا يجب أن تطلبي لي كوب عصير آخر مكافأة لي على ذكائي.

ضحكت مها ضحكة صافية وقالت وهي تشير للنادل:

– ستصابين بالتخمة أيتها الشرهة.

أجابتها إسراء قائلة:

– أن أموت من التخمة خير من أموت جوعًا.

طلبا من النادل كوبين من العصير وهما تتبادلان المزاح، قبل أن تقترح إسراء قائلة:

– هيا دعينا نسبح قليلًا حتى ننسى هذا الحر المقيت.

ترددت مها لبرهة قبل أن تحسم أمرها وكأنها قررت أن تتستمع بكل لحظة دون النظر لعواقب الأمور وقالت:

– هيا بنا.

– أزاحتا المنشفتين اللتين كانتا تغطيان جسديهما وانطلقتا بملابس السباحة وكل منهما تحاول دفع الأخرى نحو المسبح أولًا، ولكن رغم المرح البادي على ملامح مها، ظل القلق ينهش أعماقها، وعقلها يواصل التفكير في صالح.. ماذا لو عرف ولو من قبيل المصادفة أنها ذهبت إلى ذلك الحفل؟.. كيف ستكون ردة فعله حينها؟.. لم يتوقف عقلها عن التفكير في ذلك حتى أن صديقتها قد لاحظت شرودها ولكنها فضّلت ألا تنبس ببنت شفة وتتركها لخواطرها، في حين قالت مها في نفسها:

– ومن أين له أن يعلم.. سأذهب وأعود قبل عودته إلى المنزل.

قالتها دون أن تعرف أن للقدر رأي آخر في ذلك.. وأن أسوأ كوابيسها قد يتحقق.. أسوأها على الإطلاق.

الفصل العشرون

إبراهيم الماوردي

ألقت الشمس بآخر أشعتها الحمراء معلنة انسحابها من هذه البقعة من الأرض، مستسلمة لستار الظلام وهو ينسدل ببطء صابغًا الواحة بلون أزرق داكن، سرعان ما سيتحول إلى الأسود، بينما تلاعبت الرياح ببعض الرمال هنا وهناك في عبث وكأنها تعلن سيطرتها على الأمور منذ هذه اللحظة، وما أن شعرت هوام الليل بانسحاب الشمس حتى خرجت من أوكارها استعدادًا لحفل الصحراء الليلي والذي سينتهي بعودة بعضها سعيدًا ممتلئ المعدة، وبعضها الآخر لن يشعر بشيء بعد الآن وجد نفسه مستقرًا بمعدة كائن آخر تذيبه إنزيمات هضمه، أضاف قدوم الليل كآبة على بيت الماوردي فوق كآبته، فلم يعد الحاج إبراهيم يحتمل مثل هذا الوضع السخيف، أخوه الذي رباه صغيرًا صار الآن يتحاشاه بعدما كان يهرع إليه حين يراه، كان يفكر كيف وصل به الحال إلى هذا الوضع؟.. ابنه يتمرد على عادات عائلته ويتنكر لميراث أجداده.. ويضطر لإعلان وفاة زوجته الحبيبة وهي على قيد الحياة.. والآن عاصم يتجنبه.. ماذا جرى لهذه الدنيا؟.. أهي لعنة حلّت على بيته لتفرّق شمله؟.. أم بلاء من الله يستوجب منه الصبر حتى يكشف الله الغمة؟.. لم يعد يحتمل كل هذه الصدمات.. يشعر ببرودة الوحدة

تنخر عظامه وتتسلل إلى روحه فتكاد تزهقها، ماذا جنى ليكون هذا عقابه؟.. فيم أخطأ؟.. كل ما أراده هو سعادة عائلته والحفاظ على عادات أجداده التي توارثوها جيلا بعد جيل..

– السلام عليكم يا حاج.

قالها عاصم في وجوم مقاطعًا أفكاره، وهو يستعد للتوجه لغرفته مباشر إلا أن صوت الحاج استوقفه قائلا:

– وعليكم السلام يا عاصم.. تعال.

تقدّم عاصم نحوه بخطوات متثاقلة وجلس بجانبه قائلا:

– أمرك يا حاج.

أمسك الحاج بكفه بقوة وقال بصوت حنون:

– إلى متى تستمر هذه القطيعة بيننا يا أخي؟

تأثر عاصم من نبرة الحزن في صوت أخيه الأكبر الذي رباه صغيرًا وأجاب قائلًا:

– حاشا لله أن يكون بيننا قطيعة يا أخي.

تسائل الحاج في حزن وقال:

– إذا ماذا تسمّي اعتزالك هذا إن لم يكن قطيعة؟

تنهّد عاصم بعمق وهو يقول:

– والله ما أستطيع مقاطعتك يا أخي، ولكنك تصر على إجباري على فعل ما لا أطيق وأحتمل.

– يا عاصم أنا لا أقصد سوى مصلحتك، ولا يعنيني في هذه الدنيا سوى سعادتك، أنت لست أخي فحسب، بل أنت لي بمثابة ابني صالح.. وأظنك تعلم هذا جيدًا.

– أعلم يا حاج، كما أنني لم أنسَ أبدًا أنك ربيتني ولم تقصّر في هذا قط، ولكن سعادتي في أن أبقى هكذا بلا زواج.

اختنق صوته بالبكاء وترقرقت عيناه بالدموع وأردف قائلًا:

– لا أستطيع أن أتزوج بعدها يا حاج.. والله لا أستطيع.

احتضنه الحاج إبراهيم بقوة وهو يقول:

– لا عليك يا حبيبي.. لا عليك.. هوّن على نفسك، إذا كانت هذه إرادتك فلا بأس.. افعل ما ترى فيه راحتك.

نظر إليه عاصم في امتنان وقال:

– بارك الله لنا فيك يا أخي.

– وفيك أيها الغالي.. أنت ظهري يا عاصم الذي أواجه به هذا العالم بعد أن.. بعد أن..

أصابته الغصة فلم يستطع إكمال جملته وهو يتذكر غياب ابنه إلا أن عاصم فهم مراده وقال:

– أنت ظهر هذه الواحة كلها، وملاذ أهلها.. كلنا نستند عليك يا أخي.

ابتسم له الحاج بانكسار وهو يربّت برفق على يده، في حين أردف عاصم قائلًا بمرح مصطنع محاولًا تغيير مجرى الحديث:

– ما رأيك أن نتناول العشاء سويًا؟

– بالتأكيد سيكون شيئًا رائعًا أن نتجمع على مائدة واحدة من جديد.

– اتفقنا.

قالها عاصم وهو يتوجه إلى المطبخ حيث يلقي أوامره للخادم أن تعد لهما طعام العشاء، ثم أسرع يختلي بنفسه في غرفته لحين الانتهاء من إعداد الطعام، فهو حتى هذه اللحظة لم يخبر أخاه بزواج صالح من مها.. وبالتأكيد أمر كهذا لن يكون سهلا على الإطلاق، يكاد عقله أن ينفجر من الحيرة، ماذا لو عرف إبراهيم؟.. كيف سيستقبل الأمر؟.. وهل ستتحمل صحته العليلة خبرًا كهذا أصلًا؟.. لعن صالح داخله ألف مرة أن وضعه في مثل هذا الموقف الصعب، أما كان يمكنه أن يتريث قليلًا حتى يستعيد أبوه صحته فيتحمل خبر زواجه من مجهولة النسب تلك؟.. لا يجب أن يعرف الحاج خبرًا كهذا الآن.. عليه أن..

– العشاء جاهز يا عاصم.

جاءه صوت الحاج يناديه لتناول العشاء مقاطعًا أفكاره، فهرع إلى المائدة وهو يقول بصوت عالٍ ليصل إلى أخيه:

– أنا قادم يا حاج.

جلسا على مائدة الطعام معًا، وقد بدا عاصم شاردًا على غير عادته، حتى أن طبقه لم ينقص سوى لقيمات صغيرة، مما دفع الحاج لسؤاله قائلًا:

– ماذا بك يا عاصم؟.. تبدو شاردًا.

انتبه عاصم لصوت الحاج فأجابه قائلًا بابتسامة مفتعلة:

– هه؟.. لا شئ يا حاج.. أنا بخير.

نظر له إبراهيم نظرة جانبية وهو يقول:

– لا لست بخير يا عاصم.. أنا أعرفك جيدًا.. هناك أمر يشغلك.

حاول عاصم التهرّب من أسئلة أخيه فقال:

– بعض المشاكل في العمل يا أخي لا تقلق.

هز الحاج إبراهيم رأسه متظاهرًا بالتصديق وقال:

– أعانك الله يا أخي.. وعلى أية حال إذا أردت أن تحكي ما يشغلك، أنت تعرف أنني أسمعك باهتمام.

جاوبه عاصم مبتسمًا وقال:

– أعلم يا أخي.

ساد صمت تام بعد ما قاله عاصم، وكل منهما منشغل بطعامه وأفكاره الخاصة، قبل أن يقطع الحاج الصمت قائلًا في تردد:

– هل.. هل.. من أخبار عن صالح؟

كان وقع السؤال على مسامع عاصم كالصاعقة، فارتبك وارتعشت يده مسقطة كأس الماء الذي يهم بشربه لينكسر بصوت مدوٍ وتتناثر شظايا الزجاج وقطرات الماء في كل اتجاه، بينما أخذ الحاج يردد قائلًا:

– خير.. خير.. خير.. لا بأس عليك يا عاصم.

نادى أحد الخدم لتنظيف الأرضية، في حيان تظاهر عاصم بالهدوء وقال:

– الحمد لله يا حاج، صالح اتصل بي مؤخرًا وهو بخير.

– أنت لا تحسن الكذب يا أخي.

اهتز صوت عاصم وترددت نبراته وهو يقول:

– يا حاج أنا...

اشتعلت عينا الحاج ببريق الحزم وقال لأخيه في صرامة:

– عاصم اسمعني جيدًا.. ربما أبدو لك رجلًا مسنًا مريضًا.. ولكنني لست غبيًا يا أخي، أنا أعرف أنك تخفي عني شيئًا بخصوص صالح.

ثم لانت ملامحه وهو يقول في رجاء:

– أرجوك يا عاصم.. لا تقلقني أكثر من هذا.

لاذ عاصم بالصمت تمامًا بعد كلمات أخيه الأخيرة وهو يزن الأمر في عقله لآخر مرة قبل أن يقول ببطء دون أن ينظر إلى أخيه المترقّب:

– صالح.. تزوج.. من.. مها.

لو كان عاصم ألقى بقنبلة في وسط الغرفة أو أطلق النار على أخيه لما كان لها تأثير أقل من تأثير كلماته الأخيرة على الحاج، إذ انتفض جسده كأنما أصابه مسّ شيطاني وجحظت عيناه في ألم، في حين غطّى الشحوب ملامح وجهه، وهو يقول بصوت واهن:

– تزوج؟

حاول أن ينهض فهبّ عاصم لمساعدته لكنه دفعه بيده رافضا مساعدته، لكنه سرعان ما تهاوى على الأرض، أسرع عاصم والخدم نحوه يحاول إفاقته ولكن بلا جدوى، وبأصابع مرتعشة تحسس عاصم نبض أخيه للحظات قبل أن تنهمر الدموع من عينيه ويقول:

– إنا لله وإنا إليه راجعون.. إنا لله وإنا إليه راجعون.

تعالى النواح من أرجاء البيت حزّنا على صاحبه، والكل غير مصدّق أن الماوردي قد مات.. وانشغل جميع أهل البيت بالتحضير

للغسل والدفن.. بينما لم يخطر ببال أحد أن يتسائل حول مصير هند التي توفى الحاج وتركها في البئر دون أن يعلم عنها أحد شيئًا.. أي شئ.

* * *

الفصل الحادي والعشرون

الحفل

تعالى صوت الموسيقى الصاخب بفيلا المرشدي في ذلك الحي البالغ الرقي والثراء حيث يقيم ابنه حسام حفلا دعي إليه جميع أصدقاءه، وقد تناثرت بينهم زجاجات الخمر، وتصاعدت أبخرة الحشيش من أرجاء الفيلا والحديقة، في حين اختلى كل شاب وفتاة في ركن من الأركان يتناجيان، كان الجو العام للحفل يفوح برائحة المجون والانحلال، والتحرر من كافة القيود الدينية والأخلاقية، حتى أن مها والتي كانت معتادة على أجواء التحرر، إلا أنها لم تستطع أن تمنع نفسها من التوتر مما تراه فمالت على صديقتها قائلة:

– لم يكن علينا أن نأتي إلى هنا.

أجابتها إسراء وهي تتمايل على أنغام الموسيقى في استمتاع وقالت:

– يا حبيبتي لقد جئنا إلى هنا لنستمتع قليلًا، ولن يحدث شئ.

نظرت لها مها مستنكرة وقالت:

– ألا ترين ما يحدث حولنا؟

التفتت إليها إسراء وتوقفت عن التمايل قائلة في صرامة:

– مها.. نحن نعلم منذ البداية ما قد نجده هنا، فلا تقنعيني أنك مندهشة الآن، دعي عنك القلق ودعينا نرفه عن أنفسنا قليلا.

نكست مها رأسها في استسلام وهمّت بقول شيء ما إلا أن صوت قاطعها من الخلف قائلا:

– مها وإسراء في حفلتي المتواضعة؟.. يا له من شرف كبير.

نظرت مها خلفها لتجد حسام بقوامه الممشوق وعضلاته المفتولة فقالت بابتسامة متوترة:

– أهلا حسام، كيف حالك؟

– بخير ما دمت قد رأيتك.

ازداد توتر مها في حين قالت إسراء بمرح:

– إحم.. إحم.. نحن هنا.

ضحك حسام وقال غامزًا:

– ونحن نعلم، ولكن مَن يهتم؟

تصنّعت إسراء الغضب وقالت ضاحكة:

– هكذا؟

أجابها حسام ويده تلتف حول خصرها في جرأة وقال:

– بل أنت ضيفة شرف هذا الحفل كله.

شعرت إسراء بالسعادة لإطراءه دون أن تزيح يده من حول خصرها وقالت:

– يا لها من مجاملة رقيقة منك على غير عادتك.

أجابها حسام قائلًا:

– حسنًا دعيني أكمل مجاملتي بأن أسألكما، ماذا تشربان؟

ثم غمز بعينه وأردف قائلًا:

– كل شيء متاح اليوم.

نظرت إسراء إلى صديقتها، فوجدتها ما زالت مصرّة على صمتها فقالت مشيرة إليها:

– اختر لنا شيئًا يخرج أبو الهول هذا عن صمته.

ابتعد حسام وهو ينحني انحناءة مسرحية وهو يقول:

– على الرحب والسعة أيتها الأميرات.

وما أن غادر حسام حتى صاحت مها في صديقتها قائلة في غضب:

– لقد أحرجتيني للغاية أمامه يا إسراء.

– يا حبيبتي أنا أداعبك فحسب، أريدك أن تكسري كل القيود الليلة فقط، وبعدها سنعود سالمين وكأن شيئا لم يحدث.

– هل ترين هذا حقًا؟

– بالتأكيد، هيا بنا نرقص حتى يأتي حسام بالمشروبات.

انطلق كلاهما نحو حلبة الرقص حيث تزاحم الشباب والفتيات في رقصة محمومة على أنغام الموسيقى، وقد التحمت أجسادهم حتى بدوا كنسيج واحد، حتى أتى لهما حسام بكأسين فتجرعتها إسراء مباشرة دفعة واحدة، في حين ترددت مها قليلًا، ولكنها أمام نظرات إسراء المتوسلة ألا تفسد اللحظة شربت الكأس الأول ولكنه لم يكن

الأخير، فقد تبعه ثانٍ وثالث، ومع كل كأس كانت تشعر بالنشوة تستولي على كيانها كله، وفقدت زمام نفسها فراحت ترقص مع هذا وذاك، دون مراعاة لأي حدود.

لم تعرف مها هل القدر هو الذي دبر كل ما حدث بعد ذلك؟.. أم أن الصدفة وحدها هي التي جعلت صالح ينجز عملًا ما لصالح والدها بالقرب من فيلا المرشدي.. هل يمكن للصدفة أن تكون بمثل هذه الدقة؟.. أم أن القدر هو صاحب اليد العليا على مصائرنا؟، فجأة وجدت صالح أمامها وعيناه محمرتين غضبًا.. ولوهلة ظنّت أن الكون قد أصابه الخرس وغشيه الظلام من كل جانب، قبل أن تستفيق على صفعة مدوية على وجنتها ويد صالح تجذبها من ذراعها بقسوة، في حين راحت عيناها تنهمران بالدموع، وهي تحاول قول شيء ما دون جدوى، ألقى بها صالح داخل السيارة بعنف وجلس على مقعد القيادة وانطلق إلى البيت، وطوال الطريق لم تتوقف مها عن محاولة استرضاءه قائلة:

– صالح.. أنا آسفة.. لم أكن أقصد.

لم يعرها صالح أي انتباه، ولم يبد عليه حتى أنه سمعها فعادت تقول:

– يا صالح.. أنت تهملني طوال اليوم و...

لم تستطع إكمال كلامها أمام نظرات صالح الغاضبة، وهو يجز على أسنانه مانعًا نفسها بقوة من صفعها حتى الموت، توقف أمام البيت وجذبها من ذراعها بخشونة وهي تتأوه في ألم حتى وصلا إلى غرفتهما ودفعها إلى السرير وأنفاسه اللاهبة تكاد تحرقها وقال:

– لم أتصور أبدًا أن يصل بك الانحطاط إلى هذا الحد، يبدو أن أبي كان محقًا فيما قاله بشأنك.

لاذت بالصمت تمامًا أمام ثورته في حين أردف هو قائلًا:

– لقد تحمّلت ما يكفي من طباعك المنحلّة، وكنت أقول لنفسي غدًا ستصبح زوجة مسئولة.. غدًا ستتفهم طباعك المحافظة.. ولكن لا فائدة منك.. واليوم أجدك في فيلا شاب رقيع تتراقصين وسط الشبان كعاهرة رخيصة.

نظرت له مها في غضب وقالت:

– أنا لا أسمح لك.. إياك أن تتحدث معي بهذه الطريقة.. هل نسيت من أنا؟.. انظر إلى نفسك.. هل هذا هو صالح الذي جائنا من الواحة لا يملك سوى جلباب وضيع.

وقف صالح مبهوتًا أمام كلماتها كأنه لم يستوعبها، أو ربما يواجه للمرة الأولى حقيقة وضعه.. حقيقة أنه نبتة انتزعت نفسها من أرضها لتزرع من جديد في أرض غريبة، نظر لها في احتقار وقال:

– نعم إنه خطأي.

قالها وأسرع نحو الباب مغاضبًا فتشبّثت بملابسه وهي تقول:

– صالح.. أنا آسفة.. لا أعرف كيف قلت هذا؟.. لا ترحل أرجوك.

أزاح يدها في هدوء وخرج موليًا لها ظهره متجهًا نحو باب الفيلا إلا أن صوت حماه جاءه من خلفه مناديًا:

– صالح.

التفت له صالح بثبات دون أن يتفوه بأي كلمة ن فأشار له رشاد قائلًا:

– تعال.. أريدك في أمرك هام.

توجه صالح خلفه نحو مكتبه وأغلق الباب خلفه ووقف ينتظر ما سيقوله حموه الذي أشعل سيجاره ببطء وقال:

– أنا أعلم ما دار بينك وبين مها، وتعلم أيضًا محبتك وقدرك عندي.

ثم نظر نحو صالح وقال في شراسة:

– ولكن مهما حدث.. حذار أن تهين ابنتي.

انتاب صالح بعض الخوف، خاصة وهو يعلم جيدًا ما يمكن أن يفعله به رشاد فقال بصوت مرتعش:

– وهل يرضيك ما فعلته مها يا عمي؟

نفث رشاد دخان سيجاره بعمق وقال:

– بالتأكيد لا يرضيني، ولك مطلق الحق في تأديبها كما يترائى لك.

ثم أضاف مشيرًا بسبابته في تحذير وقال:

– دون أن تهينها.. مفهوم؟

أجابه صالح في خنوع وقال:

– مفهوم يا عمي.

تألقت عينا رشاد في انتصار، قبل أن يقول في هدوء:

– والآن اجلس لنتحدث بشأن الموضوع الذي أريدك فيه.. ولكن يجب أن تتمالك أعصابك جيدًا.

شعر صالح بالقلق يغزو قلبه وقال:

- كلي آذان صاغية.

قالها دون أن يدرك أن هذا الموضوع الذي سيحدثه رشاد بشأنه خطير للغاية.. خطير لدرجة أنه قد يغير حياته للأبد، وحياة آلاف غيره.. حياة أهل الواحة.. كلهم.

* * *

الفصل الثاني والعشرون

سفير الشيطان

استرخى رشاد السيوطي خلف مكتبه وهو يراقب علامات التوتر المرتسمة على ملامح صالح في تلذذ، قبل أن يقول:

– أخبرتني حين جئت إليّ في لقائنا الأول أنك ابن الحاكم الفعلي لواحتكم.. أليس كذلك؟

أجاب صالح في توتر قائلًا:

– بلى يا عمي.. ولكن..

قاطعه رشاد مكملا حديثه دون أن يهتم بما يقوله زوج ابنته وقال:

– وماذا يحدث في حالة وفاة هذا الحاكم؟

انتفض جسد صالح وقال في ذعر:

– ماذا؟

نهره رشاد قائلًا في صرامة:

– اجلس، فلم أنتهِ من حديثي بعد.

استجاب له صالح وجلس في سكون، في حين تابع رشاد حديثه:

– ما يحدث هو أن يحل ابنه محلّه.. صحيح؟

هز صالح رأسه موافقًا وقال بصوت خافت:

– صحيح.

وقف رشاد ودار حول مكتبه وهو يرسم علامات الحزن على ملامحه ويقول:

– البقاء لله يا صالح.. لقد انتقل والدك إلى رحمة الله.

تراجع صالح في عنف حتى كاد أن يقع بكرسيه إلى الخلف لولا أن تداركه رشاد وأمسك به جيدًا وقال:

– ماذا؟ أبي؟.. متى وكيف؟

أجابه رشاد قائلًا وهو يحافظ على ملامح الحزن التي يمثّل شعوره به:

– أمس جائني الرجال بالخبر، فأنت تعلم أن هناك عملية تجرى بالقرب من هناك، وكنت قد أمرتهم أن يتابعوا الأمور في الواحة من حين لآخر.

اختلطت المشاعر في قلب صالح وهو يسمع الخبر، فمن ناحية يفطر حزنه على أبيه قلبه.. ولم ينسَ قط أنه مات وهو غاضب عليه، ولوهلة شعر أن لعنة الله سوف تحل عليه في أي وقت، ولكنه من ناحية أخرى لم ينسَ أنه السبب في تركه الواحة وأنه لم يفهمه قط.. لم ينسَ أنه السبب في أن يلقي بنفسه في أحضان رشاد السيوطي.. مزيج من الحزن والغضب والحيرة والندم تصارعوا على نهش قلبه، ودون أن يدري انفجر في بكاء حار، قبل أن يفيق على صوت رشاد الذي قال:

– بالطبع يجب أن تذهب إلى هناك لتدفن والدك وتجهّز لمراسم العزاء.

مسح صالح دموعه بكفيه وهو يقول بصوت ما زال يغلب عليه أثر البكاء:

– أشكرك كثيرًا يا عمي.

– لا تشكرني هذا واجبك.

صمت قليلًا قبل أن يتابع قائلًا:

– كما أنني سأرسل معك بعض الرجال ليساعدوك في تثبيت أركان حكمك.

شعر صالح بالدهشة وهو يقول:

– حكمي؟

– بالتأكيد، ألم نتفق على أنك سترث حكم الواحة بعد أبيك؟

– ولكن الأمور لا تجري بمثل هذه الطريقة.

اقترب منه رشاد حتى لم يبق بينهما سوى سنتيمترات قليلة وهو يقول:

– سنجعلها نحن تسير بهذه الطريقة، أنت ابنه الوحيد.. وريثه الشرعي.. كما أنك بالتأكيد ورثت قدرته كما أخبرتني.. ينقصك فقط بعض التعليم الذي ستعرفه من الكتاب.

– يا عمي.. أنت لا تعـ..

قاطعه رشاد كعادته وهو يقول:

– وبمناسبة الكتاب.. أريد أن أرى هذا الكتاب.. ماذا تطلقون عليه؟

أجابه صالح في يأس من مناقشته قائلًا:

- كتاب المساخيط.

- أها.. نعم.. المساخيط.. لماذا أطلقتم عليه هذا الاسم العجيب؟

- يقولون أن جدي الأكبر وجده في أحد مقابر الفراعنة وأن فيه تعاليم تركها نبي الله يوسف لهم، وفي الواحة يطلقون على الفراعنة المساخيط.

- رائع، إذا سأتركك الآن لتجهز نفسك للسفر وسآمر الرجال لمرافقتك.

وقف صالح وهو يهز رأسه بالموافقة متوجهًا نحو الباب قبل أن يتناهى لمسامعه صوت رشاد وهو يقول:

- صالح.. لا تعد بغير كتاب المساخيط.

نظر له زوج ابنته وقد اسودت الدنيا أمام ناظريه وقال:

- أمرك يا سيد رشاد.

لم تمر سوى ساعة حتى كانت ثلاث سيارات سوداء من نوع الجيب، يقطعون الطريق نحو الواحة، تهتز بهم السيارات انخفاضًا وارتفاعًا بحسب الكثبان الرملية التي يمرّون فوقها، تاركين خطوطًا طويلة من أثر عجلات السيارات سرعان ما ستمحوها الرياح.

- شرد صالح بعقله بعيدًا وهو يتذكر طفولته وصباه في الواحة.. أمه الحنون التي لم يحضر دفنها أو عزاءها.. أبوه الذي وإن كان لم يفهمه جيدًا ولكنه رعاه بامتياز بهيبته وطيبته المعهودتين.. يتذكر

أهل الواحة وهم يخرجون كل صباح باتجاه حقولهم ومراعيهم، وهم يكافحون للبقاء على قيد الحياة دون أن ينتظروا مساعدة أحد، كان يكفيهم أن يكون الماوردي وعائلته بينهم حتى يطمأنوا أن غدًا أفضل سيأتي.. الآن هو على وشك أن يدمّر كل شئ، يوشك أن يسحق بصحبة الرجال الذين جاءوا معه من العاصمة الواحة وأهلها في لمح البصر، كفيل ضرير يدهس عشًا للنمل دون أن ينتبه..

– صالح... صالح.

تكرر النداء من السائق الذي يقود سيارته ليخرجه من تأملاته، فأجابه قائلًا:

– ماذا هناك؟

ضغط السائق مكابح سيارته للتوقف تمامًا وهو يلتفت إليه قائلًا:

– أي طريق سنتخذ؟.. هذا أم ذاك؟

قالها وهو يشير إلى مفترق الطرق أمامهما فأشار صالح نحو الطريق الأيمن، لينطلق السائق بالسيارة من جديد مثيرًا عاصفة من الرمال خلفه، في حين عاد صالح لشروده ويفكّر مليًا فيما هو مقبل عليه.. فهو الآن أمام مفترق طرق كالذي توقفت أمامه السيارة منذ لحظات.. فإما أن يخلص لأبيه وأجداده وأهل الواحة ويعيش أسير عاداتهم.. إما سيتحول تدريجيًا إلى سفير للشيطان.. شيطان من الإنسي يدعى رشاد السيوطي.

* * *

الفصل الثالث والعشرون

الخلاص

تعالى صوت المقرئ بالآيات الخاتمة لسورة الفجر في عزاء الحاج إبراهيم الماوردي، وقد تجمّعت كل نساء الواحة في البيت الكبير الذي بناه جده، في حين جلس الرجال في الساحة الواسعة أمامه يستمعون إلى المقرئ ويختلسون النظر إلى هؤلاء «المصاروة» أو «الأفنديات» الذين يرتدون بذلات أنيقة، وهم يتعجبون من تواجدهم في عزاء الحاج..

– صدق الله العظيم.

قالها المقرئ بصوت منغّم فرددها من حوله كل الحاضرين، بينما اقترب أخو الحاج من أحد هؤلاء «الأفنديات» وهو يقول بلهجته البدوية:

– أهلا يا صالح.. مضى وقت طويل منذ رأيناك بالواحة آخر مرة.

أجابه صالح بذات اللهجة التي تناقضت بشدة مع بذلته الأنيقة وهو يقول في خفوت:

– أهلا بك يا عمي.

حدّجه عاصم بنظرة صارمة قبل أن يقول في حزم:

– قدم لضيوفك واجبهم ثم اتبعني.

تبادل صالح النظرات مع أحد «الأفنديات» الذي هز رأسه إيجابًا فانطلق صالح خلف عمه إلى إحدى الغرف المنعزلة عن الدار، قبل أن يقول:

– خير يا عمي؟

نظر له عمه نظرات ثاقبة شعر بها صالح تعبث في نواياه قبل أن يقول:

– لماذا عدت يا ولدي؟

أجابه صالح قائلًا في تردد:

– كيف تقول هذا يا عمي؟.. هذا عزاء أبي.. ألا تريدني أن آخذ بعزاء أبي؟

اشتاط عاصم غضبًا وصاح قائلا في استنكار:

– عزاء أبيك؟.. ألآن تتذكر أن لك أب بعد أن كنت سببًا في وفاته؟

انتفض جسد صالح وقال في ذهول:

– أنا؟.. سبب في موته؟

أجابه عمه في غضب:

– ومن غيرك أيها الشقي؟.. لم يحتمل خبر زواجك من مجهولة النسب تلك.

– لا.. هذا غير معقول.

تركه عاصم يواجه نفسه الأثيمة بجرمها وهو يقول:

– سأتركك تستريح الآن وسأدبر مكانًا لثيرانك يبيتون فيه وغدًا نتحدّث بخصوص ما جئت من أجله.

غادر عمه الغرفة تاركًا إياه يغوص في بحر من الشعور بالذنب والإنكار، عقله يرفض تصديق أن والده مات بسببه، أكان جاحدًا إلى هذه الدرجة؟.. كيف لم ينتبه إلى حب أبيه الجارف له؟.. الحب الذي أوصله للموت؟.. ورغم شعوره بالذنب، لم يتوقف شيطانه عن الوسوسة له بأن أباه هو السبب في نفيه من الواحة ووقوعه في فخ رشاد السيوطي، شعر بصداع رهيب جرّاء تفكيره فاستسلم للنوم دون أن يغيّر حتى ملابسه.

استيقظ صالح في اليوم التالي على صوت عمه يدعوه ليتناول إفطاره قائلًا في جفاء:

– هيا لتتناول فطورك ونتحدث.

تناولا الفطور على عجل وكل منهما ينظر بطبقه ويلتزم الصمت، وكأنهما يدخران مجهودهما في التحدث إلى حين المواجهة الدامية التي ستحدث بينهما بعد قليل..

ارتفع صوت عمه وهو يكرر في إلحاح صارم سؤاله له بالأمس قائلًا:

– لماذا عدت يا صالح؟.. فمجيئك ليس لأخذ العزاء فحسب.. وإلا ما اصطحبت هؤلاء الثيران الذين يقفون بالخارج.

رفع صالح رأسه وقال بانكسار وكأنه خجل مما سيقول:

– عدت لأحصل على ميراثي.

أجابه عاصم في استهجان:

– ميراثك؟.. أي ميراث يا صالح؟.. وهل سأسرق حقك يا ولدي؟.. اسمعني جيدًا يا ولدي، أنا أعرفك منذ أن كنت طفلًا صغيرًا، وأعرف جيدًا ما جئت من أجله أنت و أصدقائك من «الأفنديات».. حقك في ميراث أبيك ستأخذه كاملًا بل وأزيدك من حقي إن أردت، أما ما تطمح إليه فلن يكون أبدًا.

– حسنًا يا عمي، ما دمت تفضّل اللعب بأوراق مكشوفة، فسأكشف لك ورقي أنا أيضًا، هؤلاء «الأفنديات» من رجال أكبر رجل أعمال في مصر كلها بالإضافة إلى أنه يعمل بتهريب السلاح وغيره، وقد أخبرته مضطرًا عن السر، وهو على استعداد أن يدفع أي مبلغ من المال حتى يحصل على ما يريد.

اشتعلت عينا عمه بالغضب وهو يقول:

– أي نذل حقير أنت؟.. أتبيع سر أبوك وأجدادك بحفنة من الأوراق؟

تهدّل كتفا صالح في انهزام وقال:

– يا عمي هذه الحفنة من الأوراق التي تتحدث عنها قد تصل لملايين الدولارات.. من الممكن أن نغير بها شكل الواحة ونمدّها بكل ما يلزمها من مستشفيات ومدارس، سنؤسس للبنية التحتية في الواحة.. سنجعلها جنة يا عمي.

– إنها الجنة التي ستطرد منها مدحورًا للأبد إن فكرت في ذلك الأمر.. لن تسير الواحة سوى على الأساس الذي وضعه الماوردي الكبير.. جدك.. أم تراك نسيته كما نسيت أشياء كثيرة يا حفيد الماوردي؟

لان صوت صالح وهو يقول بصوت متوسل:

– أرجوك يا عمي، إن في هذا مصلحتنا، نستطيع بهذا المال أن نغير حياة الواحة.. سنبني مستشفى على أعلى مستوى ومدارس لكافة المراحل وسنمهد الطرق التي تربطنا بالعاصمة، وسيتبقى لنا ما يجعلنا نعيش كالملوك، سنحفر بدلًا عن البئر عشرة آبار.

صرخ عمه في وجهه قائلًا:

– أنت أحمق لا تفهم شيئًا.

– إذن فهّمني.

التقط عمه أنفاسه وقد أوشك الانفعال أن يذهب بها، وهو يجلس على أحد المقاعد، فجذب صالح مقعدًا آخر وجلس بالقرب منه، ليفهم منه حكاية ذلك السر وهو ينصت بكافة حواسه إلى عمه وهو يحكي..

– روى لي أبي عن جدي عن أبيه أن جدنا كان عالمًا رحالة، ينتقل من بلد إلى آخر ومن بلدة إلى أخرى، ولا يكاد يبيت في قرية أكثر من ثلاث ليالٍ، وتكاثرت أقوال الناس حوله فبعضهم يقول درويش يبحث عن الله وآخرين يعتقدون أنه ولي من أولياء الله، وغيرهم يقولون أنه ساحر، وعندما زهد صحبة الناس جاء إلى هذا المكان الموحش لا أثر فيه لحياة.. لكن كل الأخبار التي نقلت عنه أجمعت أنه كان يحمل على الدوام عصاه وكتابه الذي يقولون أنه وجده في إحدى جبانات المساخيط في صعيد مصر، وعندما استقر هنا ضرب بعصاه الأرض فانفجر منها بئرًا عظيمًا حتى أنه صار يخط بعصاه في الأرض فيتبعها الماء مشكلًا تلك الممرات تحت واحتنا، واستقر به المقام هنا حتى

مرّت عليه قافلة من الحجاج عائدين من الأرض المقدسة، واستأذنه بعضهم في الإقامة حوله والتبرك به، فوافقهم حتى تكاثروا و تكوّنت الواحة، وأطلقوا عليه لقب «الماوردي» لآن الماء الذي كانوا يشربونه من بئره كان له طعم سكري يشبه ماء الورد، وصار سر الماوردي وكتابه ينتقلان من الابن الأكبر من أبناءه وأحفاده.

– وما الجديد في كل هذا يا عمي؟.. فأبي رحمه الله روى لي معظم هذه الحكايات بالفعل.

– الجديد هو أنت، فلم تكن على قدر المسؤولية، وأنا الآن في حيرة من أمري عما سيكون ولم ينتقل السر إليك ولا إليّ.

– وماذا في هذا؟.. دعنا من كل هذا الهراء ولنعطِ الرجل ما يريد ونأخذ نحن ما نريد.. ونعيش حياة طبيعية بلا ماوردي ولا أسراره.

أجابه عاصم في غيظ:

– أيها الأحمق.. هل تظن أن دور الماوردي هو استخراج الماء من البئر وتوزيعه في أرجاء الواحة فحسب؟

– نعم يا عمي.. هذا ما أعرفه بالفعل.

– هذا لأنك أحمق وتعجّلت الخروج عن طاعة الحاج إبراهيم رحمه الله الذي لابد كان سيخبرك أن ماء البئر كالوحش الكاسر، إذا لم يروّضه الماوردي كل يوم بتعازيمه التي يحفظها حين يؤخذ منه العهد، سيفيض حتى يغرق الواحة كلها.

تجمدت ملامح صالح بعد أن استمع إلى عمه حتى أنهى كلامه قبل أن يقول:

– هل تطلب مني أن أصدق هذا الهراء؟.. هذه الحكايات التي يتناولها العجائز والجهلة والمخرفون لن تنطلي عليّ، بل حتى إذا افترضنا أنني صدقت، هل تتوقع من هؤلاء الثيران كما تدعوهم أن يصدقوا هذا؟

صمت قليلًا ليزدرد لعابه قبل أن يقول:

– عمي.. لقد نفد صبري.. ستقودنا إلى مكان الكتاب وإلا...

– وإلا ماذا؟

– وإلا لن يمر الأمر بسلام.. لا عليّ ولا عليك ولا حتى على أهل الواحة.. هؤلاء الرجال لا يعرفون المزاح.. وما داموا قد جاءوا إلى هنا فلن يوقفهم شئ عن الحصول على ما يريدون، حتى لو أقاموا مذبحة.

– صدقني يا ولدي، ستجلب الوبال علينا جميعًا.

أجابه صالح في يأس ممتزج بالرجاء وقال:

– أرجوك يا عمي.. الوبال الحقيقي هو ألا يحصل هؤلاء «الأفنديات» على الكتاب.

زفر عاصم طويلًا وبدا في حيرة من أمره، لا شئ يعادل أرواح أهل الواحة.. ولا يستطيع أن يخون أمانة أجداده، وأخيرًا بدا وكأنه حسم تردده وقال:

– حسنًا يا بني، كل ما يمكنني فعله أن أقودكم إلى البئر، وهناك نرى ما نستطيع فعله، حقنًا لدماء أهالي الواحة فحسب.

– صدقني يا عمي، لقد تورّطت في هذا الأمر، ولا أرجو شيئًا من الله سوى أن يخرجني منها على خير.

استشعر عاصم الصدق في صوت ابن أخيه فاحتضنه بقوة وقال:

- لا عليك يا صالح.

خرج العم من الغرفة لا ينظر خلفه يتبعه صالح الذي أشار لرجال رشاد السيوطي أن يلحقوا بهم، وقد سار الجمع في موكب مهيب وسط نظرات الجالسين في الدار المتسائلة، توجه الجمع نحو غرفة الخلوة التي تقود إلى المقام و توقف فيها كل من عاصم وصالح يقرآن الفاتحة للحاج إبراهيم أمام نظرات «الأفنديات» المتأففة، تبادل صالح وعمه نظرات في قلق، فهما دون غيرهما من مرافقيهم يتوقعان الخطر بالأسفل، ولكنهما مهما كانت توقعاتهما.. فما سيشاهدانه بالأسفل يفوق كل التوقعات.. كلها.

* * *

الفصل الرابع والعشرون

البعث

بدا التذمر على وجوه رجال رشاد وبدأوا يتحسسون أسلحتهم في توتر، وهم يستحثون صالح على إنهاء الأمر بسرعة وقد قال زعيمهم في حزم:

– صالح لن نقضي اليوم كله هنا، نريد أن نحصل على الكتاب وبعدها سنكون طوع أمرك، لا نتحرك إلا بإشارتك.. ولكن بعد أن نحصل على الكتاب.

هز صالح رأسه موافقًا وقال:

– لقد أوشكنا على الانتهاء لا تقلق.

في حين رماهم عاصم بنظرة احتقار ولاذ بالصت وهو يخرج عدة مفاتيح من جيب جلبابه ليفتح بها سبعة أقفال التي تغلق باب الحجرة الثانية التي تقود، حيث وجدوا أنفسهم في حجرة خالية من كل شئ سوى المقام، وفي ركن الحجرة ثمّة سلم حلزوني يقود إلى الأسفل، تبادلوا النظرات فيما بينهم، مما جعل العم يصرخ فيهم قائلًا:

– هل ستهبطون أم نعود؟

قالها وأسرع الخطى نحو السلم الحلزوني يبتلعه الظلام بالأسفل، تردد صالح قليلًا قبل أن يتبعه مضطرًا بينما يلحق به هؤلاء

الرجال ذوو البذلات الفاخرة والأسلحة المتأهبة للإطلاق في أية لحظة يستشعرون فيها الخطر.

وبالأسفل اتسعت أعينهم في ذهول، فقد وجدوا أنفسهم فجأة فيما يشبه الكهف، وعلى مقعد حجري في أحد الأركان جلست امرأة عجوز متشحة بالسواد تضع كتابًا في حجرها يبدو عليه القدم، في حين أمسكت بيدها اليمنى عصا، وعلى ضوء المشعل الشحيح لمح صالح تلك الرموز التي تشبه رموز الكتابة الفرعونية، بينما تتمتم المرأة بكلمات هامسة غير مفهومة وتشير بعصاها من آن إلى آخر، فيجري الماء في الإتجاه التي تشير إليه.. كان الأمر يفوق قدرتهم على الاستيعاب، حتى عمه بدا مأخوذا بما يحدث وكأنه لم يكن يتوقع أن يرى هذا المشهد.

اقترب صالح من المرأة وهو ينادي قائلًا:

– من أنتِ يا خالة؟.. وماذا تفعلين هنا؟

التفتت إليه المرأة بعينين احمرتا غضبًا وقالت بصوت أجش:

– ليس هذا من شأنك، أغرب عن هنا قبل أن يصيبكم غضبي.

لكن صالح وعمه لم يعيرا كلامها انتباها، فقد استحوذت ملامحها على عقليهما تمامًا وهما يستخرجان من أعمق تلافيف عقلهما ذكرياتهما مع ذلك الوجه ليقولا في وقت واحد:

– أمي؟!!.

– هند؟!!

قبل أن تجيبهما صائحة:

– اغربا عن هنا فورًا، وخذا معكم حثالتكم هذه.

قالتها وهي تشير إلى رجال رشاد، مما دفع أحدهم أخيرًا ليخرج عن طوره ويتحدث لأول مرة منذ أتى ويقول:

– لقد نفد صبري يا صالح.

وقال موجها حديثه للبقية:

– هيا نحضر الكتاب والعصا.. يكفينا كل هذه المهاترات.

انتفض الرجال جميعهم ليهاجموا العجوز التي عادت تتمتم بكلماتها الغير مفهومة، وسرعان ما فاض الماء من البئر متجمعًا حول أرجلهم فعرقلهم وسقطوا واحدًا فوق الآخر، وقد حاول بعض أن يلتقط سلاحه ولكن منسوب الماء ارتفع أكثر ليغمرهم، وباتوا يصارعون الغرق، بينما الماء يزداد حولهم بلا توقف دون أن يغمر المكان بأكمله، وكأن هناك حاجزًا غير مرئي يمنعه من أن يسيل في كل اتجاه، حتى لفظوا جميعًا أنفاسهم الأخيرة فانحسر الماء من جديد إلى مجاريه، وعاصم ما زال واقفًا يراقب ما يحدث في دهشة وخوف، ثم يقول بتردد:

– إذًا فقد انتقل السر إليك من حينها.

أجابته المرأة قائلة باقتضاب:

– نعم.

فأمام نظراتهما الذاهلة استطاعت هند هزيمة بضع رجال أشدّاء مدجّجين بالسلاح ببعض التمتمات، رأيا بأعينهما الماء يفيض وينحسر ويروح ويغدو بإشارة من عصاها، أي قوة تلك يمكن أن يمتلكها

الإنسان وتجعله يتحكم في أهم سائل على وجه الأرض؟.. الماء.. وماذا يمكن أن يحدث لو وقعت مثل هذه القدرات في اليد الخاطئة؟.. يا لها من كارثة تلك التي كان صالح موشكًا على فعلها.

– أمي.

قالها صالح بصوت منكسر متوسل بعد أن انحسر الماء عن جثث الرجال وبدأ يحيط بصالح، لمح عاصم ارتعاشة ضعيفة على جانب فم هند وقد بدا عليها التأثر لوهلة، ولكنها سرعان ما عادت لجمود ملامحها دون أن تهتم بمنسوب الماء الذي وصل إلى ركبتيه، عاد يكرر بصوت كسى نبراته الذعر:

– أمي.. أرجوك.

ازداد توتر عاصم مع وصول منسوب المياه لكتفي عاصم وقال متحدثًا إلى هند:

– كفى يا هند أرجوك.. هذا ولدك صالح.

أجابته بصوتها الأجش قائلة في صرامة:

– ولدي طالح.. أراد أن يدنّس مقام جدّه.. واصطحب الأوغاد ليسرقوا إرثنا.

– هند.. كفى أرجوك.. صالح سيموت.. لقد ندم صدقيني.

تردد صوتها الأجش عبر جدران الكهف وهي تصيح قائلة:

– ربما ينفعه ندمه في الآخرة.. أما هنا.. فقد صدر الحكم عليه.. بالموت.

قالتها وهي تراقب منسوب المياه قد ارتفع وغطّى صالح بالكامل، وهو يحرّك ذراعيه ورجليه بقوة، في حين ترتسم على ملامحه

أمارات الذعر و الاختناق، وكلما حاول أن يخرج رأسه من الماء، يرتفع المنسوب أكثر وأكثر، أمسك عاصم بيدها بقوة، وعاد يكرر قائلًا:

- ستقتلين ولدك يا هند.

تجاهلت هند تلك القبضة الباردة التي اعتصرت قلبها بشدّة وهى ترى فلذة كبدها يصارع الغرق، ولكنها كانت قد أصدرت حكمها.. وليس لها أن تخالفه أبدًا.

* * *

الفصل الخامس والعشرون

صالح الماوردي

من البديهيات العقلية أن غريزة الأمومة هي أقوى غريزة إنسانية بعد غريزة البقاء، بل إنها قد تتفوق عليها في بعض الأحيان، فنجد أن الأم قد تضحي بحياتها في سبيل حياة ابنها، لذا لم يكن غريبًا أن تفشل كل محاولات هند في أن تبدو قاسية، وتتغلب أمومتها في النهاية على قسوة حكمها مشيرة بعصاها تجاه الماء فيتشتت فجأة في كل اتجاه، ويسقط صالح أرضًا وهو يسعل بشدّة محاولًا التقاط أنفاسه، في حين هرع إليه عمه يحاول مساعدته على النهوض، وفور أن تمالك أنفاسه حتى انحنى يقبّل يد أمه وهو يقول باكيًا:

– سامحيني يا أمي.. أنا سبب كل هذا الدمار.

لم تملك هند سوى أن تربّت على رأسه قائلة بحنان:

– سامحتك يا ولدي.. فليسامحنا الله جميعًا.

حاول عاصم أن يضفي بعض المرح فقال:

– هل سنبقي هنا طوال اليوم؟.. أنا جائع للغاية.

أجابته هند في تردد:

– أخرجا أنتما.. أما أن فيجب أن أظل هنا حتى أموت حقيقة.

قبّل صالح رأسها وقال:

– بعد الشر عنك يا أمي، بل ستأتين معنا وتواصلين حياتك كما كنت وأكثر.

غمز صالح بعينه وقال في مرح:

– سنقول أي شيء وسيصدقنا أهل الواحة، سنقول أن عودتك كانت كرامة من كرامات الماوردي، وأنك لم تموتي حقيقة وإنما أنت من «أهل الخطوة»، الذين يجتازون مسافات بعيدة في لمح البصر.

ضحك عاصم وقال في فرح:

– يا لك من داهية، من أين واتتك هذه الفكرة؟

– الحاجة أم الاختراع يا عمي.. ها ما رأيك يا أمي؟

أجابته هند بتردد قائلة:

– كما ترون.. تبدو لي فكرة مناسبة.

احتضنها صالح بقوة وقال:

– إذا هيا بنا

خرجا من البئر إلى حجرة المقام ومنها إلى الخلوة، حيث مكثت هند، في حين خرج صالح وعمه إلى الناس، وأصغت السمع وهي تنصت إلى صالح الذي جمع حوله الناس وقال:

– أهلي وأهل الواحة.. أعلم أن غيابي سبب لكم ألمًا وحيرة، وربما تسببت عودتي أيضًا في إرباككم، ولكني منذ اليوم سأكون على الدرب كما كان أبي وجدي، من اليوم لا تقلقوا بأي شأن من شئون الواحة، فكل شيء عاد كما كان.

ارتفع صوت الجمع وهو يحمدون الله وبعضهم يكبّر في ارتياح، في حين أكمل صالح قائلًا:

– كما أنني أود أن أشارككم فرحتي بعودة أمي هند الماوردي من رحلتها الروحانية إلى جدّي الماوردي.

زاد اللغط بين الناس وكلهم يتسائل في حيرة عن معنى هذا الكلام، على أن صالح أشار إلى عمه أن يستدعي أمه، وسرعان ما ظهرت أمامهم مرتدية ملابس بيضاء، فارتفعت أصوات التسبيح وقد أيقنت نفوسهم من كرامات الماوردي، وصاروا يتسابقون على تقبيل يديها وهي تردّهم في رفق، بينما أنهى صالح كلماته للناس ودخل إلى البيت وألقى بنفسه على أريكة أبيه بينما جلس بجانبه عمه عاصم وهو يسأله قائلًا:

– ماذا ستفعل الآن؟

نظر له صالح في صمت ثم أجابه قائلًا:

– بقي أمر واحد فقط.

– ما هو؟

أشار له صالح بما معناه ستعرف الآن وهو يخرج هاتفه الخلوي ويطلب رقمًا ما، ويضع الهاتف على أنه منتظرًا أن يجيبه الشخص المطلوب على الطرف الآخر، وسرعان ما جاءه صوت رشاد الواثق وهو يقول:

– مرحبًا أيها البطل.. لم أتوقع أن تبشّرني بالنجاح بهذه السرعة.

أجابه صالح في برود قائلًا:

– بالفعل توقّعك في محله يا سيد رشاد.. فأنا لا أتصل بك لأبشرك.

– ماذا تعني؟

– أعني أنني أتصل بك لأخبرك أن رجالك قد قضوا نحبهم هنا غرقًا، صدقني أنت لن تريد أن ترى وجوههم بعد أن انتفخت من أثر الاختناق.

– ماذا؟.. غرقوا؟.. كيف؟

– كل هذا لا يهم.. المهم أنهم انتهوا، وأنا أتصل بك لأخبرك.. وأحذرك.

جاءه صوت رشاد عبر الأثير وهو يقول في غضب عارم:

– تحذرني أنا أيها ال.....

قاطعه صالح لأول مرة في حياته وقال:

– لا داعي لكل هذا يا رشاد.. الأمر انتهى.. وأنصحك أن تنساه أنت أيضًا.. الأمر أكبر منك صدقني.

صاح فيه رشاد وهو يكاد يصاب بالفالج من الغضب:

– ألا تعلم من أنا يا ولد؟

– أعلم جيدًا، ولا أهتم كثيرًا.. وبالمناسبة.. ابنتك طالق.. طالق.. طالق.

قالها صالح وأغلق الهاتف من فوره، في حين اتسعت ابتسامة عاصم وهو يربّت على كتفه.. لقد عاد صالح الماوردي.. أخيرًا.

* * *

ارتفع صوت أذان الفجر من مسجد الواحة يشق سكون الليل، بينما امتدت كف بضة إلى جسد صالح النائم تهزه برفق وتقول صاحبته بصوت ناعم قائلة:

– استيقظ يا صالح.. لقد أذن الفجر.

تثائب صالح بقوة وهو يفرد ذراعيه لأقصى امتداد لهما وهو يتمطى، ويقول:

– أتعلمين شيئًا يا حبيبة؟.. إن أسعد لحظات حياتي هي حين توقظيني.

ضحكت حبيبة برقة وقالت:

– ولماذا؟

أجابها وهو يتحسس وجنتيها رفق وقال:

– لأنني أطالع وجهك الصبوح يا زوجتي العزيزة.

ابتسمت حبيبة في خجل وقالت محاولة تغيير دفة الحديث:

– حسنًا أيها المجامل.. هيا حتى لا تفوتك الصلاة.

– نهض صالح من سريره وتوجّه نحو دورة المياه ليتوضأ، وخرج متوكئًا على عصا جده حتى المسجد وهو يتمتم بذكر الله والاستغفار، وما أن أتم صلاته حتى عاد إلى البيت حيث مكث بخلوة والده والتي أصبحت خلوته الآن حتى شروق الشمس..

- صباح الخير يا حاج صالح.

قالها أحد أهل الواحة مشيرًا إليه بالتحية فردّها صالح بخير منها قائلًا:

- صباح الخير يا سالم.. كيف حالك وحال أسرتك؟

- بخير يا حاج، لا ينقصنا سوى دعائك لنا.

أجابه صالح وهو يتأهب للرحيل وقال:

- يسّر الله لك كل عسير، وفرّج عنك كل كرب.

سارع الرجل بالتأمين خلف دعاءه، في حين أكمل صالح جولته الصباحية التي اعتاد عليها والده من قبل، وصار طوال الطريق يحيي هذا، ويدعو لذاك.. وينصح تلك.. لقد استقرّت أمور الواحة أخيرًا بعد أن عاد إليها الماوردي.. صالح الماوردي.. الجديد.

تمّت بحمد الله

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة

الإهداء ٧
الفصل الأول: الحاج إبراهيم الماوردي ٩
الفصل الثانى: عاصم الماوردي ١٥
الفصل الثالث: صالح الماوردي ٢١
الفصل الرابع: مها رشاد ٣١
الفصل الخامس: هند الماوردي ٣٩
الفصل السادس: الماوردي ٤٥
الفصل السابع: صالح ٥٣
الفصل الثامن: رشاد السيوطي ٥٩
الفصل التاسع: صالح.. مها ٦٧
الفصل العاشر: إبراهيم الماوردي ٧٣
الفصل الحادي عشر: المقابلة ٧٩
الفصل الثاني عشر: العاصمة ٨٥
الفصل الثالث عشر: الرؤيا ٩٣
الفصل الرابع عشر: وفاة مفاجئة ١٠١
الفصل الخامس عشر: تفاصيل مزعجة ١٠٩
الفصل السادس عشر: هند الماوردي ١١٧

الموضوع	رقم الصفحة

الفصل السابع عشر: الزفاف ١٢٣

الفصل الثامن عشر: انكسار ١٢٩

الفصل التاسع عشر: فتور ١٣٥

الفصل العشرون: إبراهيم الماوردي ١٤١

الفصل الحادي والعشرون: الحفل ١٤٩

الفصل الثاني والعشرون: سفير الشيطان ١٥٧

الفصل الثالث والعشرون: الخلاص ١٦٣

الفصل الرابع والعشرون: البعث ١٧١

الفصل الخامس والعشرون: صالح الماوردي ١٧٧

* * *